منظومة آيات القتال في القرآن الكريم

وتطبيقاتها المعاصرة

الأستاذ الدكتور

محسن عبد الحميد

التفسير للطبع والنشر

شباب
النادي الشبابي

منظومة آيات القتال
في
القرآن الكريم
وتطبيقاتها المعاصرة

منظومة آيات القتال في القرآن الكريم وتطبيقاتها المعاصرة

المؤلف: أ.د. محسن عبدالحميد

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى ٢٠١٨م- ١٤٣٩هـ

النادي الشبابي

مكتب التفسير

للطبع والنشر

أربيل - الشارع الثلاثيني قرب المنارة المظفرية

+964 750 818 08 66

www.al-tafseer.com

tafseeroffice@yahoo.com

/TafseerOffice

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مكتب التفسير

أ.د.محسن عبدالحميد

منظومة آيات القتال في القرآن الكريم وتطبيقاتها المعاصرة ، محسن عبدالحميد (المؤلف)

١٥٤ ص.

١٧* ٢٤ سم

١- الفكر الاسلامي.٢- القتال. أ.العنوان. ب.السلسلة

ISBN: ٩٧٨-٩٩٣٣-٥٩٣-٤٠-٧

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة - إقليم كوردستان (٢٢٨) لسنة ٢٠١٧

"الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعتبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر"

تصميم الغلاف: أمين مخلص

خط الغلاف : نوزاد كويي

التصميم الداخلي: جمعة صديق كاكه

منظومة آيات القتال
في
القرآن الكريم

وتطبيقاتها المعاصرة

الأستاذ الدكتور
محسن عبد الحميد

المقدمة

الحمدلله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلمين سيدنا محمد بن عبدالله وعلى أهل بيته الطاهرين وصحبه المجاهدين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين.

أما بعد :

فآيات القتال في القرآن تمثل جزأً مهما من منظومته اليقينية التي أرسلها الله تعالى رحمة للعالمين تخرجهم من الظلمات الى النور.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾[1].

هذه المنظومات المعرفية المتكاملة في القرآن الكريم، كل منظومة فيها تنظم ناحية من نواحى حركة الحياة المتغيرة الى يوم القيامة.

درسها المفسرون القدماء (رحمهم الله) دراسة جزئية متباعدة عن بعضها البعض في كثير من الأحيان، وعند التعارض الظاهرى للايات، بعضها مع البعض، لجؤا الى القول بنسخ آيات منها، حتى يستقيم لهم المعنى.

---

[1] (الشورى : ٥٢-٥٣).

فمثلا آية السيف[١] جعلوها آية حاكمة ناسخة لمعظم آيات القتال، فمزقوا بذلك منظومتها المتكاملة، ولم يتطرقوا الى الوحدة الموضوعية لتلك الآيات، كي ينتهوا الى أن كل آية منها نزلت لتعمل بها عند الحاجة في موقف معين زمانا أو مكانا، ليدرك الناس حقيقة خلود القرآن الكريم في مواجهة الحياة المتغيرة والمواقف المتنوعة. ومن جهة أخرى لم يدرسوا كيفية انزال النبي ﷺ لكل آية في مكانها الصحيح في مواجهته الحياة المتغيرة والمواقف المتنوعة. والأمر المؤكد أن تطبيقات النبي لآيات المنظومة كلها في المواقف المتعددة تنفي أن تكون أية آية فيها منسوخة فضلا عن عشرات الآيات الأخرى في الموضوع نفسه.[٢]

إن الإدعاء بان آية السيف نسخت أكثر من مائة وخمسين آية في القرآن الكريم أعطى المتشددين الجاهلين في كل عصر من الخوارج وغيرهم الحجة كي يعملوا السيف في رقاب المخالفين سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم، دون معرفة تامة بالمنظومة القرآنيةالمتشابكة، ولا فهم لأصول وقواعد ومقاصد تفسيرها، ولا إدراك مآلات تنفيذ أحكامها في الشريعة الاسلامية.

مما أحدث انحرافات في غاية الخطورة، وفواجع دموية ظالمة، الحقت بالدين الاسلامي الحنيف الوسطى أضرارا شاملة وتشويهه، وسعها الاعلام المعادى المعاصر، لكسرهيبة الاسلام في داخل وخارج العالم الاسلامي.

ومن هنا فقد ظهرت حاجة ملحة لاعادة دراسة موضوع آيات القتال، كي نعلم فيما إذا كان القرآن الكريم قد استعمل آية واحدة فحسب في حسن العلاقة بين

---

[١] اختلفوا حتى في تعيين آية السيف، كما قالوا.

[٢] صدرت في العصر الحديث دراسات تفصيلية اثبتت عدم وجود النسخ في القرآن الكريم منها الدراسة التفصيلية القيمة للاستاذ الدكتور مصطفى الزلمي بعنوان (التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن). وقبلها دراسة الدكتور مصطفى زيد، بعنوان (النسخ في القرآن) ودراسة الدكتور طه جابر العلواني بالعنوان نفسه.

المؤمنين و الكافرين أم هنالك مواقف متنوعة تعالجها آيات متعددة، كل آية يعمل بها في موقعها الذي ينتهى الى تحقيق مصالح المسلمين من جهة ومصالح الانسانية في شعوبها ومواقفها من جهة أخرى.

ومنهجي في هذه الدراسة المتواضعة الاعتماد المباشر على آيات القرآن المجيد، سواء تلك المجموعة التي تحدد حاكمية جمع من الآيات المهيمنة، أم التي تتحدث عن تفاصيل المنظومة آية آية، المحكومة في مساراتها بالآيات السابقة.

وظنى أن هذه الدراسة فيها شيء من الجدة، اذ لم أجد أحدا لا سيما من المفسرين قد تحدث عن حاكمية آيات على آيات في المنظومة المعرفية القرآنية الواحدة.

ودعواتى من الباري سبحانه أن يوفقنى الى اصابة الهدف وتوجيه جيل الشباب الى معرفة حقائق القرآن الكريم، ومقاصده الصريحة أو المستنبطة : حتى لا يقعوا في متاهات التأويلات المنحرفة غير المنضبطة ، التي وقع فيها الخوارج قديما وحديثا و ولغوا تحت ضغطها في دماء المسلمين جهلا وظلما وعدوانا، والحقوا بدينهم الحق جرائم ارتكبوها هنا وهناك، هو عنها بريء.

وآخر دعوانا ان الحمدلله ربّ العالمين

النادي الشبابي

تمهيد

من المعلوم بالضرورة عند المسلمين، بناء على مقدمات مثبته عندهم أن القرآن الكريم وحى نزل على قلب الرسول الخاتم محمد بن عبدالله ﷺ، قاطع في ثبوته، ظني في دلالة بعضه، وقطعى في دلالة البعض الآخر. وفي ذلك حكمة الهية بالغة، لأنه الكتاب الخالد لاكتاب بعده، يسع في حركته وكيفية تنفيذ آياته الزمان والمكان، في ضوء معانى الفاظه والقواعد المستنبطة منها والمقاصد الكامنة وراءها ومراعاة مآلات كيفية تنفيذ أحكامها.

وهو بعد ذلك كتاب كوني شامل بصفه الإمام سعيد النورسي بإنه : (الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الابدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم، وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات، وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة، وكذا هو اساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوى الاسلامي وكذا هو خريطة للعالم الأخروى، وكذا هو شارح وتفسير واضح وبرهان قاطع وترجمان ساطع لذات الله وصفاته واسمائه وشؤونه.

وكذا هو مرب للعالم الانساني، وكالماء وكضياء للانسانية الكبرى التي هي الاسلامية، وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادى الى ما خلق البشر له. وكذا هو للانسان، كما انه كتاب شريعة، كذلك كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الانسان المعنوية، كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل، حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين، رسالة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره كأنه مجموعة رسائل. [١]

وبجانب هذا التعريف الشامل العميق الرائع، فان القرآن الكريم هو كالكلمة الواحدة لمن درسه وتعمق في منظومته التعبيرية، لأنه لا يشبه كلام البشر في مستوياته المتنوعة. ومن ناحية أخرى فان القرآن الكريم يخضع كله لمنظومة رياضيه متكاملة مترابطة. يشكل فيه اعجازا رائعا بديعا، بحيث اذا نقلت جملة أو كلمة من مكانها، تضعضعت المنظومة كلها[٢]. وفي هذا دليل قاطع على أن الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكن لهم دخل أو تصرف في تنظيم الآيات والسور وانما كانت توقيفية. ولذلك عندما كانت الآيات تنزل متدرجة على النبي كان يقول : ضعوا هذه الآيات بين آيات كذا وكذا في سورة كذا، بتوجيه من جبريل عليه السلام.

ومنذ أول نزول القرآن الكريم يعمل يراع العباقرة من العلماء والمفكرين والادباء والمحققين في اكتشاف جوانب لا حدود لها لهذه الحقائق الاعجازية. وما تزال هذه الدراسات القيمة مستمرة، ولن تنقطع الى يوم القيامة، مما تقوم دليلا ساطعا على أن هذا الكتاب الكريم الخاتم من الله تعالى، أرسله مع خاتم رسله لينقل الناس من عبادة العباد الى عبادة ربّ العباد، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ومن ضيق الدنيا الى

---

[١] رسائل النور — اشارات الاعجاز / ح٥ / ص٢٢، ترجمة : احسان قاسم الصالحي.

[٢] انظر : الإعجاز العددي في القرآن الكريم، لعبدالرزاق نوفل. والبرمجة الرياضية في القرآن الكريم للدكتور احمد السامرائي. ثم المعادلات الرياضية في القرآن الكريم للدكتور ادريس الخرشاف، وهي رسالة دكتوراه في الرياضيات قدمها الى جامعة السوربون في باريس عام ١٩٨٥ م وقد احدثت هذه الرسالة ضجة كبيرة في فرنسا والمغرب.

سعة الآخرة، كما قال الصحابي الجليل ربعي بن عامر لطاغية الفرس (رُستَم) قبيل فتح القادسية عندما سأله بم ابتعثكم ربكم؟ فاجاب ذلك الإيجاب القصير البليغ الجامع.

واذا جئنا الى الدراسة التفصيلية لموضوعات القرآن نجد أنها متداخلة تعرض في سياقاتها، تعبر عن كل موضوع فيها منظومة محكمة من الآيات الموزعة، تشكل صورة متكاملة للظروف والأحوال المتغيرة التي تواجه المجتمع في مواجهته المتنوعة لتلك التغيرات الحيوية.

ومن الخطأ، بل من الخطورة أن تأخذ آية واحدة من منظومتها وتعرض للتعبير عن الموضوع كله، بينما قدرها الله تعالى للتطبيق في وضع معين تواجهه البشرية، كي يبقى القرآن الكريم خالدا لا يعجز أبدا عن حل المعضلات التي تواجه المجتمع المسلم، بل المجتمعات البشرية جميعا. ومن هنا اجمع الراسخون من علماء الاسلام أن هذا الكتاب الالهى الأخير صالح للتطبيق في كل زمان ومكان الى يوم القيامة، إذا عالجه عقل مقاصدي جامع.

يقول الاستاذ الدكتور مصطفى زيد في كتابه القيم (النسخ في القرآن)

(فالمشركون الذين تتحدث عنهم آية السيف [١]، هم إذن فريق خاص فى المشركين "كان بين رسول الله وبينهم عهد، فنقضوه وظاهروا عليه أعداءه، وقد بريء رسول الله منهم وآذنهم بالحرب إن لم يتوبوا عن كفرهم ويؤمنوا بالله ورسوله وبمحمد نبيا ورسولا. وهؤلاء المشركون أعداء الاسلام ونبيه ليسوا هم كل المشركين بدليل قوله تعالى جل

---

[١] يقصد قوله تعالى ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (التوبة: ٥)

ثناؤه قبل آية السيف : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[١].

ثم بدليل قوله تعالى بعد آية السيف :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾[٢].

ليست الغاية إذن في مقالهم هي اكراههم على الدخول في الاسلام بقوة السلاح، وماكانت الغاية قط هذا الأكراه، ولا أدل على ذلك هذا من قول الله إلى نبيه في الآية التي تلى آية السيف دون فاصل ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾[٣].[٤]

إن المنهج المبتور في الاعتماد على آية واحدة، وإدارة الصراعات السياسية والإجتماعية والإقتصادية والتربوية والجهادية وغيرها، عليها في زماننا، احدث كوارث متنوعة من الظلم والإعتداء، وإدعاء احتكار الحقيقة وسفك الدماء واتباع منهج الخوارج في التكفير.

وقد حدث هذا الإنحراف التكفيرى عبر التاريخ، وتوسع فيه الذين انتقلوا في ادعاء الإصلاح من التاريخ الى العصر، وليس من الوحى الى العصر، في اطار منطق تفسيرى يجمع بين أجزائه، بحيث يستعمل كل جزء فيه في المكان القمين أن يوضع فيه.

---

[١] (التوبة: ٤).
[٢] (التوبة: ٧).
[٣] (التوبة: ٦).
[٤] ح٢ / ص ٥٠٤ – ٥٠٧ نقلا عن (فقه الجهاد) للقرضاوي ١/٥٠٤ – ٥٠٧.

وهنا فانهم بذلك نقلوا مآسى وفجائع التاريخ القديم الى المجتمعات الاسلامية المعاصرة، فشوهوا معالم المنهج القرآني الحكيم في مواجهة المشكلات الحاضرة والمستقبلة.

وهذا المنهج هو الذي يعمل به أعداء الإسلام في المؤسسات الثقافية وكنائسهم ولا سيما رجال الدين في العالم الغربي، فهم ينتخبون آيات معينة ويخرجونها من سياقتها ليقولوا لعشرات الألوف من رعاياهم الجالسين أمامهم أن القرآن يوجه المسلمين الى التفجير والقتل والذبح والإرهاب وتدمير المجتمع الإنساني.

وينقل هذا المنهج المبتور الظالم والإنحراف الكبير عندهم وعندنا الى الفضائيات العالمية ليراه مئات الملايين يوميا فيترك أثره المدمر في نفوس الأجيال.

وكنت أتابع هذه المصيبة الكبرى في إحدى الفضائيات الأمريكية الكنسية، حيث كان القس المشهور (سوكارت) ينقل آيات معينة من القرآن الكريم ويقطعها عن مضامينها، ويقول. هذا هو الإرهاب القرآني ممثلا في هذه الآيات، وليس ما أقوله أنا. ويستشهد لتقوية شرحه، بالمجازر الدموية التي وقعت في نيويورك ولندن وباريس ومدريد وحتى في مدن العالم الاسلامي ويقول أن هؤلاء الإرهابين هم يقولون إنهم يعتمدون هذه الآيات في القتال وسفك دماء الناس وتفجيرات المنشآت وشوارع المدن.

هذه الأوضاع غير العادلة وغير المنصفة، هي التي دفعتني الى دراسة منظومة آيات القتال في القرآن العظيم، والآيات الحاكمة عليها في توجيهها واظهار حكمتها ووسطيتها ورحمتها، عبر تحليل معنى كل آية وارتباطها بظروف تطبيقها الآن وفي المستقبل، حتى يعلم الجميع موضعهم في فهم منطق تلك الآيات في داخل منظومة الشريعة الاسلامية العامة.

الفصل الأول
الآيات الحاكمة على منظومة القتال

هذه الآيات لا يمكن تجاوزها عند شرح أية آية في المنظومة التي نتحدث عنها، لأن فهمها الدقيق سيجنبها الإنحراف في تفسيرها وتجاوز ظروفها المرتبطة بها عند التنفيذ وعدم التنبيه الى المقاصد العامة للقرآن الكريم في بناء الشريعة الاسلامية، بله الانتقال الدائم من البلاغ المبين الى السياسة الشرعية التي تأتى دائما لتحقيق مصالح العباد، دقها وجلها وابعادهم عن المفاسد.

ولو قرأنا القرآن بدقة، لواجهتنا عشرات الآيات الحاكمة التي لابد أن نفهم آيات منظومة القتال في ضوئها ونحدد مساراتها الصحيحة في التفسير والتطبيق.

ونحن نذكر هنا بعضا منها لا كلها خشية التطويل الممل.

١- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[١]

أى مالكهم لأنه خلقهم أو مربيهم أو متولى أمورهم والقائم عليهم بما يصلحهم و (العالمين) ما سوى الله تعالى من مخلوقاته.[١]

---

[١] (الفاتحة: ٢).

إذن هو الذي خلقهم، وهو الذي يحدد كيفية التصرف فيهم، فلا يجوز لغيره تعالى، التصرف إلا بما حدده عن طريق شرائعه التي أرسلها مع رسله وانبيائه، لأن تصرف مخلوقاته بعضهم في بعض بغير ما اراد ربهم وخالقهم، يؤدي الى الظلم والعدوان ثم زعزعة الحياة برمتها.

٢- قال تعالى :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾[٢]

تبين الرشد من الغي عندما أرسل خاتم رسله محمد بن عبدالله، فبلغ الناس طرق الهداية، وطرق الغواية (هديناه النجدين) فبقى على الناس جميعا أن يميزوا بين الطريقين بالعقل الذي وهبهم الله تعالى اياه.

والدين مبناه على التمكين والاختيار، وهو مناط الثواب والعقاب ولولا ذلك لما حصل الابتلاء والاختبار ولبطل الامتحان.[٣] والإكراه لا يؤدي الى الاقناع ثم الاخلاص فالطاعة، فسلب الاختيار لا يليق بالمستخلف. قال : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾[٤].

وحمل الانسان لها بني على هذا الأختيار، واذا اساء فيه واختار طريق الشيطان والنفس الامارة بالسوء كان ظلوما جهولا.

---

[١] تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبدالرحمن السعدى، ص٣٩، الأولى مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

[٢] (البقرة: ٢٥٦).

[٣] صفوة البيان لمعاني القرآن — حسنين محمد مخلوف ط٣، ص ٦٢.

[٤] (الأحزاب: ٧٢).

٣- قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[١].

أي أحسنا اليهم وأنعمنا[٢]. وهذا التكريم بجميع وجوه الإحسان، اكرمهم بالعلم والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.[٣]

لأن تكريم الخالق العظيم هذا التكريم العظيم لبني آدم جميعاً وليس للمسلمين فحسب، فكيف يجوز لانسان أن يهين انسانا مثله، ويظلمه ويعتدي عليه، بل يسلب حريته، ويسجنه ويقتله أو يفجر بيته على من فيه فضلا أن يفعل كل تلك الفواجع بجماعة أو شعب أو أمة. قال تعالى بعد أن عرض مقتل ابن آدم بيد أخيه.

٤- ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[٤]

هذه الآية الكريمة تعبر عن تكريم الروح الإنساني تكريما لا تكريم وراءه. فقيمة نفس انسانية واحدة تقابل النفوس البشرية قيمة، لا قيمة انسان معين وانما كل انسان أى اعجاز في التعبير القرآني؟

وأية مساواة في هذا الحكم العادل؟

---

[١] (الإسراء: ٧٠).

[٢] الإصفهانى – المفردات، ص ٧٠٧ ط١، ت: صفوان عدنان داوودى.

[٣] تفسير الكريم الرحمن، ص ٤٦٣.

[٤] (المائدة: ٣٢).

مهما كانت عقيدة تلك النفس المنفردة، ومهما كان لون صاحبها ومهما... ومهما...

نعم هي نفس خلقها الله تعالى، فهو ربّ الأنفس جميعا. فكيف يجوز مع هذا التكريم الإعتداء على أية نفس بدون وجه حق، يقدره دين أو اجماع عقلي في دستور، تقرره المصلحة المشتركة في أمة من الأمم.

٥- قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[١]

الخطاب هنا للناس جميعا، أي ليس للمسلمين فحسب وليس لقوم معينين، حيث يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد وجنس واحد، كلهم من ذكر وانثى ويرجعون جميعا الى آدم وجواء [٢] ثم جعلهم شعوبا وقبائل كي يتعارفوا بالتناصر والتعاون والتوازن.

ولتحقيق هذا التوجيه الالهى لابد أن يبذلوا أقصى الجهود كي لا يتصادموا ولايتحاربوا، ولا يسفك بعضهم دماء بعض. يعني ذلك أن العلاقة بين بني آدم يجب أن يقوم على السلام والوئام، حتى يحصل هذا التعارف، ويتحقق ذلك التعاون. هذا في الدنيا، أما من يتقى الله منهم فانه اكرم عند الله يوم القيامة، وأما في الدنيا فكلهم عباد الله تعالى، لا فضل لاحد على أحد إلا بما يقدمه من العمل الصالح الذي يفيد البشر جميعا أو يفيد أحد قومه أو يفيد نفسه وعائلته.

---

[١] (الحجرات: ١٣).

[٢] تفسير الكريم المنان، ص ٨٠٢.

٦- قال تعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[١].

أي لكنه لم يشأ سبحانه ذلك، كونه مخالفا للحكمة التي بنى عليها تعالى اساس التكوين والتشريع. ثم ان الله تعالى منع رسوله الخاتم في أن يجبر الناس على الدخول في دينه، لأنه تعالى أعطاهم الحرية في اختيار دينهم ايمانا وكفرا، والحساب في هذا الاختيار يكون في الآخرة وليس في الدنيا. فكيف يجوز للمسلمين أن يقتلوا الكفار لكفرهم أو يظلموهم أو يميزوا بينهم وبين سائر المؤمنين في تحقيق العدل في الدنيا. ودليل العقاب في الآخرة آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ ﴾[٢].

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[٣].

أي على الرسول أن يبلغ مانزل عليه من الحق وهو القرآن الكريم، ولا يجبر أحدا على الايمان ولا يكرههم عليه، لأن الله خالقهم خيرهم بين القبول أو الرفض، واذا وضعت هذه الآية في اطار المنظومة ودلالة الآيات الأخرى فإن عقابه على عدم الاستجابة يكون في الآخرة وليس في الدنيا.

---

[١] (يونس: ٩٩).
[٢] (الكهف: ٢٩).
[٣] (يونس: ١٠٨).

٧- قال تعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1] .

لم يشأ سبحانه أن يجعل الناس أمة واحدة لحكمة هو أعلم بها، ولكن شاءت حكمته أن يجعلهم مختلفين، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل، منهم من يختار الهداية ومنهم من يختار الشرك. غير أنه سبحانه لا يحاسبهم في هذه الدنيا لأنها دار عمل وليس دار جزاء، وانه يحاسبهم في الدار الآخرة، بعضهم في الجنة وبعضهم في السعير. وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[2].[3]

والفالحون هداهم الله تعالى الى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الالهى، وأما ما عداهم فهم مخذولون موكولون الى أنفسهم.[4]

لأنهم اختاروا الفجور في حين كانوا يستطيعون اختيار الهداية، وكان هذا سابقا في علم تعالى، فلم يستحقوا العناية الربانية كالاولين.

٨- قال تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾[5].

---

[1] (هود: ١١٨ - ١١٩).

[2] (الشمس: ٧ - ١٠).

[3] (الشمس : ٧-١٠).

[4] تفسير الكريم الرحمن، ص ٣٩٢.

[5] (النحل:٩).

قصد السبيل، أي المستقيم الموصل لمن سلكه الى الحق، وهو التوحيد بنصب الأدلة، وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه.

والجائر أي المنحرف عن الحق، ولو شاء الى ماذكر من التوحيد هداية مستلزمة للاهتداء فعل، ولكنه لم يفعل، لأن الذي يدور عليه التكليف الأختيار الذي عليه ترتب الأعمال التي بها يرتبط الجزاء.[1]

فاذا كان ربّ العباد لم يجبر عباده على سلوك مسلك الايمان، فكيف يجوز لمخلوق أن يجبر الناس على ما يريد. هذا جهل ليس وراءه جهل.

٩- قال تعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]

لأنه وضع هذا النظام للاختيار، ولذلك لا يمنعه ان اشرك أو اختار التوحيد، على الرغم من أنه عليهم أن يوحدوه ولا يشركوا به. ومن أجل ذلك أرسل الخالق تعالى الشرائع : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾[3]

وأما قوله (وما جعلناك عليهم حفيظا) أي رقيبا مهمينا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) من قبلهم تقوم بأمرهم وتدبر مصالحهم)[4]. لأن الله تعالى أمره عليه السلام بالتبليغ دون الإجبار.

١٠- قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ

---

[1] صفوة البيان ٣٤٣.

[2] (الأنعام١٠٧).

[3] (الإسراء: ١٥).

[4] أوضح المعاني في تهذيب تفسير (روح المعاني) ح٢ / ص ١٤٥.

ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

أى قل لاولئك الذين وجدنا قلوبهم غافلة عن الذكر واتبعوا أهواءهم، أن هذا الذي أوحى اليّ هو الحق، وهو لازم لإتباع من شاء أن يؤمن به ويتبعه فليفعل كسائر المؤمنين، ومن شاء أن يكفر به وينبذه وراءه فليفعل. غير أنهم يجب ان يعلموا أن نارا عظيمة في جهنم تنتظرهم. وهذا لايكون إلا في اليوم الآخر، وأما في الدنيا فهم أحرار في اتخاذ القرار كما دلت الآية، وعمل النبي عليه الصلاة والسلام التذكير فحسب، ودليله قوله تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

١١- قال تعالى :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

أى فان اتصفوا بالاسلام والدين الحق فقد اهتدوا، وان تولوا واعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا به، فانما عليك البلاغ، وقد أديته على الوجه الأكمل، فاتركهم لخالقهم، لأنه بصير بهم، وهو الذي سيحاسبهم، ولم يقل له اقتلهم أو إضطهدهم، لان ما يتعلق برسول الله ﷺ هو البلاغ فحسب.[4]

١٢- قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ

---

[1] (الكهف: ٢٩).

[2] (الغاشية: ٢١ – ٢٢).

[3] (آل عمران: ٢٠).

[4] المصدر السابق / ح١ / ص ٣١٥

﴿ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩ ﴾[1].

أمر الله تعالى رسوله الكريم محمدا ﷺ أن يقول للناس أوحى الله اليّ بالتوحيد الخالص، وهو الايمان باله واحد، فهل انتم منقادون حيث أمركم بالإنقياد، فإن تولوا عنه ولم يؤمنوا فقل لهم، لقد اعلمتكم ما أمرت به ولم أخص أحدا منكم دون أحد.

ولم يقل لرسوله عاقبهم بالتعذيب والقتل إن لم يؤمنوا بما ابلغتهم من التوحيد والايمان.

١٣- قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٩٢ ﴾[2].

إذن حدد له سبحانه طريق الحق، وهو الاسلام المبين في كتابه العزيز، وهو القرآن العظيم، وأمره أن ينذر به، ليس بالتهديد والقتل. فمن إهتدى، فهو يهتدي لنفسه، ومن رفض وضل عن الصراط المستقيم فجزاؤه في اليوم الآخر ولا يؤاخذ بشيء من ذلك في الدنيا.

١٤- قال تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤ ﴾[1].

---

[1] (الأنبياء: ١٠٨ – ١٠٩).

[2] (النحل: ٩٢).

خطاب عام لليهود والنصارى يقول : هلموا الى كلمة عدل، لا اختلاف فيها بين الشرائع، بان نوحد الله تعالى بالعبادة ونخلص فيها ولا نعبد غيره، ولا نجعل له شريكا ولا يتخذ بعضنا بعضا الهة من دون الله، فان لم يفعلوا فاشهدوا باننا مسلمون.

ولم يقل : افعلوا بهم كذا وكذا، لأن هذا متروك لربّ العالمين الذي خلقهم وهو الذي يحاسبهم يوم القيامة.

١٥- قال تعالى

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[٢].

الاسلام هو دين التوحيد والإنقياد، وقيل شريعة نبينا ﷺ. والحق أن الاسلام الذي جاء به النبي متضمن فيه، لانه لا اسلام بعد مجي رسول الله إلا هو. فمن تحرى غير شريعته، فهو غير مقبول منه، وهو في الآخرة من الخاسرين. لا يترتب عليه عقاب في الدنيا اذا بقى يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا أو صابئيا وغير ذلك.[٣]

١٦- قال تعالى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾[٤].

هذه الآية الكريمة تدعو الناس الى طاعة الله وطاعة رسوله الذي ارسله بالهدى ودين الحق، ثم يخاطب الرسول فيقول : إن أعرض هؤلاء ولم يؤمنوا فقد أديت ما

---

[١] (آل عمران: ٦٤).

[٢] (آل عمران: ٨٥).

[٣] أوضح المعانى ٣٥٣/١.

[٤] (النور: ٥٤).

حملك الله تعالى من أمانة التبليغ، وهؤلاء الرافضون والمتولون حملوا مسؤولية عدم الايمان ولم يهتدوا. ومع ذلك فلم يحملهم أى عقاب دنيوى على اختيارهم في هذه الدنيا، انما عقابهم مؤخر الى يوم القيامة في ضوء قطعية مئات الآيات، وفيها الآيات التي ذكرناها من قبل.

١٧- قال تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

هؤلاء قد يكونون من أهل الأديان أو غيرهم من المنظمات والدول، أخبر الله تعالى أنهم إن لم يقاتلوا المسلمين ولم يحاولوا أن يخرجوهم من ديارهم فالواجب أن يبروهم ويحسنوا اليهم، لأن الله سبحانه يحب المحسنين العادلين. قال الكيا الهراسي الشافعي، فيها دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب وعلى وجوب النفقة للأب الذمى.[2]

أما اذا قاتلوا المسلمين وحاولوا اخراجهم من ديارهم، بل ظاهروا الأعداء الآخرين على إخراجهم، فهنا لا يجوز للمسلمين أن يتولوهم لأنهم حربيون لابد من دفعهم وقتالهم إن تمكنوا من ذلك، وان لم يتمكنوا من فورهم لابد أن يتقووا ويهيئوا انفسهم للدفاع عن الملة والوطن.

---

[1] (الممتحنة: ٨-٩).

[2] أوضح المعاني ٥/٢١٠.

١٨- قال تعالى :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[١].

هذا أول نص قرآني في سورة مكية ذكر فيه الجهاد. ولفظ (لاتطع) أى لا تتابعهم على كفرهم ومايؤدي اليه، وهو تهييج له ﷺ وللمسلمين، فحينئذ ليس لك إلا أن تجاهدهم بما في القرآن من البراهين والقوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الأمم المكذبة[٢] لأن دعوة العالمين جميعا الى ما يريده القرآن منهم في صفاء العقيدة وعدالة الشريعة ونظام الأخلاق جهاد كبير، لان ذلك السبيل لهدايتهم، وليس هنالك سبيل آخر.

١٩- قال تعالى :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٣].

أى من اليهود والنصارى وغيرهم، وبالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم، والمشاعبة بالنصح والسورة بالأناة، أما الذين ظلموا منهم بالإعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة وقلوا لهم إننا نؤمن بما إنزل الينا وما إنزل إليكم لعلهم يلينون ويدرسون الدين الاسلامي ويقارنون بينه وبين دينهم فيصلون الى الحق وهو المطلوب.[٤]

---

[١] (الفرقان: ٥٢).

[٢] أوضح المعاني ٥٢٢/٣.

[٣] (العنكبوت: ٤٦).

[٤] تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٨٤، أوضع المعاني ١٠٣/٤.

٢٠- قال تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[1].

أى أدع الى الاسلام من بعثت اليهم من الناس جميعا. وتتفاوت طريق الدعوة لتفاوت مراتب الناس. بالخواص بالحكمة وهم اصحاب النفوس المشرقة، قوية الاحساس لادراك المعانى، مائلة الى تحصيل اليقين، وأما العوام الذين لاعناد عندهم فبالموعظة الحسنة وأما المعاندون منهم المجادلون بالباطل فباحسن طرق الجدال.

وبعد هذا التبليغ المنوع، فالله تعالى هو أعلم بالضال والمهتدى، فلا أحد له حق الإكراه والأجبار.

٢١- قال تعالى :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ ﴾[2].

هذه الآية من أوضح الآيات التي تدل على الاتجاه السلمي في الاسلام وعلى رغبة الاسلام في السلم وكراهيته للحرب، فهذه الجملة (وكفى الله المؤمنين القتال) لا يقولها دين متعطش للدماء، بل دين يحب السلام ويمتن على الناس فإن الله تعالى كفاهم القتال وتبعاته.[3]

---

[1] (النحل: ١٢٥).

[2] (الأحزاب:٢٥).

[3] فقه الجهاد ١٣٥٨/٢، ١٣٥٩، للشيخ القرضاوي.

ويستشهد القرضاوي بقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[1].

فيقول : (الاسلام لا يرغب في الحرب لذات الحرب، كما انه يكره الحرب ولا يخوضها إلا اذا فرضت عليه كرها).

٢٢- قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾[2].

تتحدث الآية الكريمة عن الأديان المحرفة المعروفة لدى العرب يؤمئذ، وتقر بوجودها على ما فيها من باطل، وكأنها تقول : دعوها على حالها يلتزمون بما هم مؤمنون به من باطل، غير أن الله تعالى لا يعاقبهم على ذلك في الدنيا، فهم أحرار في مسالك أديانهم واختيارهم، غير أن خالقهم يحاسبهم يوم القيامة على انحرافاتهم فالذين آمنوا بدين التوحيد وهو الاسلام عقيدة و شريعة وسلوكا فهم الى الجنة وغيرهم من المحرفين المشركين الى عقاب جهنم.

وتدل الآية أنه لاحق لأحد أن يحاسبهم في الدنيا على ما هم عليه من دين.

٢٣- قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ

---

[1] (البقرة: ٢١٦).

[2] (الحج: ١٧).

بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾[1].

في هذه الآيات الكريمات عرض تفصيلي لما يجب أن يكون عليه ايمان المسلم. فهو يؤمن بالله تعالى الخالق ويؤمن بما نزل على خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله ويؤمن بما أنزله على ابراهيم الذي مال عن الشرك الى التوحيد وما أنزله على جميع الانبياء من بعده، ومع ذلك فهو لا يفرق بينهم جميعا، لأنهم جميعا دعوا الى التوحيد الخالص والإستسلام الشامل لخالقهم ربّ العالمين سبحانه وتعالى.

والواجب بعد ذلك تبليغ هذه الحقائق الى البشرية جميعا، فأن آمنوا بها، فانهم على خير و هداية، وإن لم يؤمنوا فهم في مخالفة ومحاربة وعداوة لله تعالى ومع ذلك لم يقل إن لم يؤمنوا.. فقاتلوهم واخرجوهم من ديارهم، لأنهم أحرار في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا، فعقابهم الاساس في الاخرة بدلالة الآيات الكثيرة التي سأذكرها إن شاء تعالى.

٢٤- وقال تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[2].

العصبة المؤمنة مع رسول الله ﷺ في مكة ظلموا كثيرا و وأذوا في سبيل الله فتحملوا وصبروا مع قائدهم، وكانوا يتظلمون اليه عليه الصلاة والسلام، فيقول لهم (اصبروا فانى لم أؤمر بقتال) حتى هاجر فانزلت هذه الآية، وهي آية الأولى التي نزلت في القتال.

إذن أقر القتال، لأن المؤمنين، اضطهدوا وظلموا واخرجوا من ديارهم بغير حق، فهم لم يبدؤا بقتال الكافرين، وانما دعوا الى دينهم بالحق والسلم وعدم

---

[1] (البقرة: ١٣٥ - ١٣٧).

[2] (الحج:٣٩).

الاعتداء، ولو لم يكن ذلك الظلم لم يشرع هذا القتال، غير ان مقاومة الكافرين لدين الحق سوف يستمر.

إذن الرد سيكون مشروعا، لماذا؟

يجيب تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴾[1].

ومن هنا فان هذه الآية في تحديد علاقة الظالمين بالمظلومين ومشروعية القتال، ودفع القتلة، من الآيات الحاكمة. وهذا الذي حدث في تأريخ رسول الله والخلفاء الراشدين حيث لم يقاتلوا إلا من قاتلوهم أو من كانوا يتهيؤن لقتالهم.

---

[1] (الحج: ٤٠).

استنتاج :

الآيات الكريمات التي استعرضناها وغيرها الكثير في القرآن الكريم تشكل قاعدة انطلاق صريحة لفهم منظومة آيات القتال في كتاب الله الخاتم وهي:

١- أن الله سبحانه شاءت أرادته – لحكمة هو أعلم بها- أن يمتحن الخلق من خلال نظام الاختلاف في المجتمع البشرى، حيث لم يجبر أحدا على سلوك الايمان به أو الإبتعاد عنه بالكفر، وانما خيرهم في ذلك واعطاهم الاستعدادات اللازمة لذلك الخيار، علما أنه يريد منهم الايمان لا الكفر، ويكره منهم الفحشاء والمنكر، ويأمرهم بالعدل والاحسان واتباع المعروف. كل ذلك عن طريق الأنبياء والمرسلين، حتى تثبت عليهم الحجة، عندما يحاسبهم يوم القيامة وليس في الدنيا، لأن الدنيا دار عمل وليس دار جزاء.

غير أنه قد يأتي الجزاء في الدنيا نتيجة للذنوب، فمثلا إدمانه الخمر يدمر صحته ويحطم حياته الاجتماعية، وقد تصيبه الامراض الجنسية بارتكابه الزنى، و تضيع أمواله بلعبه (القمار). وقد يبتعد مجتمع بعمومه من الله تعالى فيصيبه الضنك والظلم وهكذا.

ودليل ذلك قوله تعالى :﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[1].

وقد يأتي العقاب مباشرة لذنب عظيم جدا ترتكبه أمة من الأمم، فيهدم الله بنيانهم كما فعل بالامم القديمة، وسجل الله تعالى هذا في كتابه الكريم بقوله : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ

[1] (طه: ١٢٣ – ١٢٤).

خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1].

إذن القانون أن الله تعالى يؤجل العقاب، لا سيما العقاب الفردي للآخرة، غير انه لحكمة شاءها سبحانه، يعذب في الدنيا فردا أو جماعة للرجوع من الذنب كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

الأدنى هو عذاب الدنيا والأكبر هو عذاب يوم القيامة.

ومن هنا فانه لاحق لأحد أن ينصب نفسه مكان الله تعالى –والعياذ بالله– فيقتل الناس لاختيارهم الإيمان أو الكفر، أو اختاروا رأيا من الآراء – طالما لم يؤذ أحدا باختياره ولم يتعد على النظام العام في المجتمع.

والعقوبات المنصوص عليها سواء في الحدود أم في القصاص لايطبقها إلا قضاء الدولة الاسلامية بأدلتها الشرعية.

أما ما فعلته أو تفعله جماعات التفكير والتعصب الطائفي من القتل والتفجيز، والتهجير والتدمير، فلا علاقة لها بشريعة الإسلام، وانما هو ظلم وجهل واعتداء، شوهوا به دينهم أمام القاصي والداني تشويها مسيئا جدا. وغدوا أداة هدم وليس إداة بناء.

٢- الأصل في العلاقات بين البشر دوله علاقة السلم واحترام المعاهدات والتحالفات الدولية. وهذا في القرآن الكريم والسنة التي بنيت عليها الشريعة الاسلامية. ولو راجعت الآيات الحاكمة التي ذكرنا في الصفحات السابقة ستجدها قاطعة الدلالة في هذا المجال.

---

[1] (العنكبوت: ٤٠).

[2] (السجدة: ٢١).

وأما الحروب والصدام بين المجتمعات والدول، فلها اسباب معروفة، قد تكون عادلة أو تكون ظالمة، فالقرآن الكريم عالجها في جميع جوانبها معالجات متوازنة.

يقول العلامة ابن خلدون (إعلم أن الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليفة منذ برأها الله. وأصلها إرادة الانتقام، بعض البشر من بعض، ويتعصب لكل منهما أهل عصبيته، فاذا تذمروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما يتطلب الانتقام والأخرى تدافع إن كانت الحرب. وهو أمر طبيعى بين البشر، إما غيرة ومنافسة وإما عدوانا، وإما غضبا لله ولدينه وإما غضبا للملك وسعيا في تمهيده.[١]

والرأى الذي ذهب الى أن الحروب في الاسلام موجهة للقضاء على الكفر تنقضه الآيات التي سيقت والآيات التي ستعرض في الفصل القادم إن شاء الله.

هذا الموضوع عالجه كثير من العلماء المعاصرين معالجات متقنة مد لله، منهم العلامة الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه (فقه الجهاد) والعلامة الدكتور وهبة الرحيلى (رحمه الله تعالى) في كتابه (آثار الحرب في الشريعة الاسلامية).

٣- وقد يشتبه هذا الأمر على كثير من المتصيدين في الماء العكر، أنه كيف توجهت الجيوش الاسلامية المحاربة دولة الفرس والروم؟

الحق أن الاسلام وجه جيوشه الى اسقاط الطفاة ومستعبدى الشعوب المضطهدة المستلبة المقهورة، فاراد أن يخلصها مما هي فيه من الظلم والعبودية والفقر والطغيان، حتى يعيد كرامتها وحريتها الانسانية ليختاروا الدين الذي يريدون، ولذلك نجد أنه لم يفرض دينه على الناس بعد تحريرهم من مضطهديهم ومستلبى حريتهم. والدليل الواقعي الدامغ على ذلك، بقاء جميع الأديان والملل والنحل في المجتمعات الاسلامية الى اليوم.

---

[١] مقدمة ابن خلدون ٢٢٦/١، فصل الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها.

على ان هؤلاء الطغاة من أكاسرة الفرس وقياصرة الروم كانوا يشكلون خطرا أكيدا على الاسلام الذي جاء لتحرير الشعوب ونقلها من عبادة هؤلاء الطغاة الظالمين الى عبادة ربهم.وهؤلاء لم يكونوا يؤمنون بالعلاقات السلمية بين الشعوب والأمم، ولا كان ذلك موجودا.

فهل من المنطق أن ينتظر المسلمون في مثل ذلك الجو المتوحش المبني على نظرية (الحق للقوة) حتى تأتي جيوش الأكاسرة والقياصرة ليدوسوا المجتمع الاسلامي كي يستعبدوا رجالهم ونساءهم فيلحقوهم بالشعوب المضطهدة، فلا تبقى قوة في العالم تدافع عن حرية الإنسان وتنقذه من الإضطهاد.

يقول / الشهيد سيد قطب (رحمه الله تعالى) :

(حقا لم يكن بد لهذا الدين أن يدفع المهاجمين له، لأن مجرد وجوده في صورة اعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وتجمع هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لاحد من البشر بالحاكمية، لأن الحاكمية فيه لله وحده. إن مجرد وجود الدين في هذه الصورة لابد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله القائمة على قاعدة العبودية للعباد أن تحاول سحقه دفاعا عن وجودها ذاته. ولابد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه. هذه ملابسة لابد منها تولد مع ميلاد ذاته. وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضا، ولاخيار له في خوضها. وهذا صراع طبيعي بين وجود دين و وجود طغاة لا يمكن التعايش بينهما طويلا.

هذا كله حق. ووفق هذه النظرة لابد للاسلام أن يدافع عن وجوده ولابد أن يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضا)[1].

---

[1] معالم في الطريق، ط١، دار عمار- عمان ١٤٣٠ – ٢٠٠٩، تعليق : د. صلاح عبدالفتاح الخالدي.

هذه القضية من الوضوح بحيث يعترف بها الراسخون من مؤرخي الأمم، العادلون المنصفون في التحقيق والتدقيق والحكم.[١]

إن محاسبة الأحداث التاريخية التي صنعها الانسان بمنظارنا اليوم خطأ منهجي كبير، لأن النظام العالمي يومئذ كان مبنيا على التوحش، وليس على الدين ولا على العقل أو القانون الطبيعي.

كانت نظرية الحق للقوة، والتفويض الآلهي للحكام هي التي تقود السياسات والحروب.

جاء الاسلام وقلب هذه المنظومة رأسا على عقب، فهو يعتمد على العدل والرحمة والحق، وتقرير كرامة الإنسان وحقوقه، والا تزر وازرة وزر أخرى.

هذه القيم النبيلة العليا كانت هي الحاكمة على التصرفات، وصنعت كل شيء بمشيئة الله في الوضع الحقيقى أن يوضع فيه.

وسنعرض النتائج الباهرة لتلك القيم بعد عرض الآيات، ثم جمعها وتحليلها واستخلاص حقيقة هذه المنظومة القتالية الفريدة التي كانت لابد منها في زمان التوحش، وفي كل زمن حاضر أو قادم يكون الاحتكام للعزيزة الطاغية الحاكمة هو الحاكم على أعمال الطغاة ومصاصي دماء البشر.

---

[١] راجع كتاب (الدعوة الى الاسلام) للمؤرخ الانجليزى المشهور توماس أرنولد.

الفصل الثاني
تفسير آيات المنظومة القتالية

قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾[1]

أى قاتلوا لإعزازدين الله تعالى واعلاء كلمته الذين يناجزونكم القتال من المشركين، ويبدؤنكم، ولاتعتدوا ابتداء لمن القى اليكم السلم وكف يده وانسحب من القتال

[1] (البقرة: ١٩٠ - ١٩٤).

لأنكم ان فعلتم ذلك فقد اعتديتم ويدخل فيه قتال المعاهد أو قتال المفاجئة به من غير دعوة أو قتل من نهيتم الى قتله، فان فعلتم فقد اعتديتم والله لا يحب المعتدين.

واذا بدأ القتال منهم أقتلوهم حيث وجدتموهم في ساحة المعركة وأخرجوهم من مكة كما اخرجوكم من قبل، لأنكم إن لم تفعلوا فسيستمر الشرك فيها ويفتتن المسلمون في دينهم. فهو ارتكاب القبيح لدفع الأقبح. فان قاتلوكم ولم ينتهوا فاقتلوهم جزاء لإعتدائهم ملتزمين بشركهم. فان انتهوا عن الكفر بالتوبة أو عنه وعن القتال، فان الله غفور رحيم.

وغاية قتالكم لهم حتى لا يفتنوكم عن دينكم ويكون الدين لله تعالى وليس للشرك وعبادة الأصنام، فإن انتهوا فلا يجوز بعد ذلك أن تعتدوا إلا على الظالمين الذين يتجاوزون حدود الحق بهجومهم عليكم لكي يفرضوا عليكم الشرك.

هذه الآيات الكريمة واضحة وقاطعة في أن القتال في الاسلام ليس مراد لذاته، وانما هو ردّ للاعتداء على الأمة في دينها ومصالحها وكرامة ابنائها وارضها، وان أراد العدو السلام وانهى اعتداءه، لابد أن يستجيب المسلمون لذلك لايقاف سفك الدماء وخراب البلاد وتدمير العمران.

وأخيرا لا يجوز ردّ العدو بالقتال إلا لمن كانوا يناجزون المسلمين بالقتال أما غيرهم فلا يجوز التقرب منهم ولا قتالهم وهم مسالمون لكم. ولهذا لم يأمرهم تعالى بصيغة (أقتلوا) وإنما قال (قاتلوا) لأنهم يقاتلون.

قال تعالى :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

عندما نقرأ آية في القرآن الكريم ظاهرها يبدو كأنها توجه المسلمين الى مباشرة القتال ضد الكافرين، لابد أن نتذكر أن تلك الآية تجرى في إطار منظومة متكاملة. فتفسيرها وحدها خارج المنظومة خطأ كبير فانت إن فسرت الآية الأولى هنا على اساس الخطأ الذي ذكرناه فستواجه صدمة كبيرة، ولكن إذا تقدمت الى الآية الثانية عرفت السبب الحقيقي لبدء القتال، وهو الدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين هاجمهم العدو الكافر الذي يقاتل في سبيل الشيطان، أي في سبيل المقاصد الفاسدة من الظلم والإعتداء والطغيان، وسلب الأموال و قتل الرجال وسبى النساء والاطفال، وتنفيذ الأحقاد القديمة لتدمير الآخرين.

هنا يقاتل المسلمون ويضحون بارواحهم ومصالحهم في سبيل الدفاع عن المظلومين، حتى لو كانوا من غير المسلمين.

هذا القتال هو في سبيل الله، لأنه أمر منه تعالى بتحقيق العدل وانقاذ المظلوم ورد الظالم.

فهذا النوع من القتال لا يكون ظالما أبدا.

فما وقع في عام (١٩٤٨ و ١٩٤٩ و ١٩٥٤) وما بعدها الى اليوم من الاحتلال اليهودي الصيهوني لفلسطين وقتل سكانه وتشريدهم، وهدم قراهم وبيوتهم كان يوجب على المسلمين أن يقاتلوا هذا العدو الغاشم بجميع الوسائل لانقاذ البلاد والعباد وانقاذ المسجد الأقصى من الأسر اليهودى. فهذه الآية تنطبق على الشعب الفلسطينى تمام الإنطباق عندما تعرضها في إطار منظومتها المتوازنة المتكاملة.

---

[1] (النساء: ٧٤ – ٧٦).

والأعداء عندما يريدون أن يشوهوا مبادى الاسلام ومقومات انظمته التشريعية يختارون من القرآن الكريم آيات منفردة مقطوعة عن سياقها حتى يصلوا الى غاياتهم من توجيه الطعون الظالمة الى الاسلام.

هذا المنهج المنحرف الخالى من العدل والإنصاف تبناه المستشرقون ورجالات الكنيسة في الغرب وتلامذتهم من المسلمين للأساءة الى الاسلام وحضارته، واتهام المسلمين عامة بالعنف والارهاب معتمدين على اعمال ثلة قليلة من الجاهلين الذين اتخذوا منهج العنف والإرهاب والقتل والتفجير ردّا على مظالم الغرب ومذابحهم في بلاد الاسلام عند احتلالها وارادة تدميرها، ومساندة طغاتها.

قال تعالى :

﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾[1].

ولم يعترضوا لكم مع ما علمتم من تمكنهم من ذلك بمشيئة الله تعالى، والقوا اليكم الصلح فانقادوا واستسلموا، فما جعل الله لكم سبيلا لمقاتلتهم وأخذهم وقتلهم، أما بعكس ذلك أى إن لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا ايديهم عن القتال، فحينئذ لكم أن تقاتلوهم ردا للعدوان.

وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾[2].

---

[1] (النساء: ٩٠).

[2] (النساء: ٩١).

قال الألوسى (هم أناس كانوا يأتون النبي ﷺ، فيسلمون ثم يرجعون الى قريش فيرتكسون في الأوثان. يبتغون بذلك أن يأمنوا نبي الله ويأمنوا قومهم، فأبى الله تعالى ذلك عليهم لأنهم، ردوا الى الفتنة واركسوا فيها، أى قلبوا فيها أقبح قلب واشنعه. فان لم يعتزلوكم بالكف عن التعرض لكم بوجه ما ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم أى لم يكفوا أنفسهم عن قتالكم، فحينئذ حيث اصبتموهم وتمكنتم منهم، جعلنا لكم حجة واضحة في قتالهم) [1]

هذه الآيات وما بعدها في اطار منظومتها القتالية في القرآن كله دليل على ان العلاقات الطبيعية بين البشر جميعا لابد أن تقوم على السلام وليس الحرب، وأما الذين يتامرون مع المشركين في حرب المسلمين، فلا بد من مقاتلتهم.

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [2].

هذه الآية ومابعدها وردت في أوضاع الحروب التي فرضها طغاة قريش على المسلمين، لا سيما في معركة بدر وأحد والخندق وما بعدها من الغزوات الى صلح الحديبية. فماذا يفعل المسلمون بعد ان هاجروا من مكة الى المدينة، ليبنوا مجتمعهم والذي كانت المواطنة بين المسلمين والمشركين واليهود هو معلم من معالمه.

إنهم يجابهون المسلمين بحرب يعد حرب ويريدون أن يقضوا على هذه التجربة الايمانية المسالمة في المدينة.

وما قاله الرسول الكريم ﷺ بأن (قريشا اهلكتهم الحرب) و (ماذا عليهم لوخلوا بيني وبين العرب) دليل على أن بدايات الحروب كانت من المشركين.

---

[1] أوضح المعاني ١/٤٩٤.

[2] (محمد: ٤).

إذن الآية تقول للمسلمين أنكم اذا واجهكم المشركون فلقيتموهم على ذلك، فلا تقصروا في الرد عليهم وقتلهم. والواقع أن المشركين كانوا في حروبهم كلها اكثر من المسلمين.

والآية الكريمة توجهم أنكم اذا انتصرتم عليهم واثخنتموهم بالقتل فشدوا وثاق الأسرى منهم، ولم تقل الآية اقتلوهم وانما قال إما تأخذون منهم الفدية وإما تطلقون سراحهم بدون الفدية منا عليهم.

اليس هذا دليلا على أن المسلمين كانوا يريدون أن تنتهى الحروب بالسلام وليس بمزيد من سفك الدماء.

على أن هذه الآية وامثالها لا تنطبق على الذميين والمستأمنين من الكافرين او الكفار المواطنين الذين يسكنون مع المسلمين في وطن واحد، ولا تنطبق على المعاهدين الذين تربط بينهم وبين المسلمين معاهدات واحلاف أو تفاهمات.

وانما تنطبق في العصر الحديث على المحتلين لبلاد الاسلام إذا كان للمسلمين تمكن وقوة في قتالهم، واخراجهم إن لم يرضوا بمفاوضات جادة واتفاقية معلنة للخروج. لا سيما اليهود في فلسطين على وجه التحديد، الذين احتلوا فلسطين بمساعدة دول الصليب ويأسرون المسجد الاقصى الذي يدوس ساحاته الطاهرة يوميا أسراب من اليهود تمهيدا لتحويله الى هيكلهم المزعوم، مستغلين قوتهم واسناد دول الاستكبار العالمي لهم.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ۞[1]

في هذه الآيات الكريمات يعرض الله تعالى علينا حقائق لا بد أن نعرفها نحن المسلمين، وهي تتعلق بنقض العهود عند الكافرين الذين هم كالدواب في حكمه وقضائه، لانهم مصرون على الكفر، راسخون فيه وفي نقض العهود والمواثيق، هؤلاء كانوا من بني قريضة من يهود المدينة نقضوا عهودهم السابقة المتتابعة مع النبي ﷺ، وكانوا مستمرين على ذلك بل كان طغاتهم يذهبون الى قريش سرا ويحرضونها على قتال المسلمين.

وعهدهم الأخير ألا يمالئوا المشركين عليه، فاعانوا المشركين بالسلاح عليه فقالوا : نسينا، ثم عاهدهم عليه السلام فنكثوا ومالئوا المشركين يوم الخندق وحالفوهم على الحرب وفتح ابواب جهتهم وقلاعهم، ليدخل منها المشركون ويعملوا السيف في رقاب المسلمين وإبادتهم جميعا. لهؤلاء قال تعالى مخاطبا رسوله : نكل بهم ليتعظ من خلفهم من المشركين واليهود. ثم بين له حكم المشرفين على نقض العهود. وذلك بطرح العهود اليهم علنا وتخبرهم، أنك قطعت ما بينك وبينهم من العهود والوصلة، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد، واعدوا مع ذلك لهم ما استطعتم من قوة شاملة تخوفون به عدوالله وعدوكم وهم كثيرون متنوعون.

ومع كل هذا الوضع الخطير من العداوة والخيانة ونقض العهود، فإن مالوا الى السلم والصلح فاجنح لها أنت ايضا.

---

[1] (الأنفال: ٥٥ – ٦١).

والمقصود هنا الالتزام بالتوجهات الالهية المتكررة في عدم مسفك الدماء وإحداث الخراب، كلما كان هذا ممكنا وراجحا.

وهذا التنكيل الذي تم بأمر الله تعالى منهم دفع اعداء الرسول والاسلام والمسلمين ليهاجعوا الرسول عليه الصلاة والسلام ويتهموا بأنه ظلم اليهود من بني قريضة في رجالهم ونسائهم، وفي سبيل توضيح هذه القضية الخطيرة لا بد لي هنا أن ارجع الى السيرة النبوية وانقل ملخصا لماجري فيها بالعدل والانصاف.

يقول العلامة الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) في غزوة الأحراب :

(أيقنت طوائف الكفار أنها لن تستطيع مغالبة الاسلام إذا حاربته، كل طائفة منفردة. وأنها تبلغ أملها إذا رمت الاسلام في كتلة واحدة، وكان زعماء يهود في جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضدا الاسلام وحشدهم في جيش كشيف ينازل محمدا ﷺ وصيحة في معركة حاسمة.

وذهب من قادة اليهود الى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ﷺ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله..

وها هم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبغون، فلا مكان لتوجس أو إخلاف، وترك زعماء اليهود قريشا الى أعراب غطفان فعقدوا معهم حلفا مشابها لما تم مع أهل مكة، ودخل في هذا الحلف عدد من القبائل الناقمة على الدين الجديد.

وبذلك نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ودعوته وأقبلت الأحزاب في جمع غفير لا قبل للمسلمين برده.

قريش في عشرة الاف من رجالها ومن تبعهم من (كنانة) و (تهامة) و (غطفان) في طليعة نجد.[1]

---

[1] فقه السيرة، ص ٢٥٦، ط٦، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م الاسكندرية

واحاطوا بالمدنية من جهاتها، ووقع المسلمون فيما وصفهم ربّ العزة في القرآن المجيد بما يأتي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا

بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [1].

وصلت معلومات الى النبي ﷺ. أن بني قريضة تنصلت عن عهودها ومواثيقها مع رسول الله، وكان عليه الصلاة والسلام أعلم بطبيعة اليهود الغادرة، فقال لاصحابه من يأتيني بخبر بني قريضة ؟ فقال الزبير بن عوام أنا يا رسول الله، فانطلق اليهم وأتى بخبرهم في الغدر والانضمام الى الأحزاب، وعلى الرغم من صدق الزبير بعث رسول الله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من حلفاء بني قريضة في الجاهلية ليتعرفا حالهم ويؤكدا له خبرهم وينصحاهم فيما يرتكبون من جريمة النقص ونبذ العهود.

والحق أن الجريمة التي أقدم عليها طغاة بني قريضة كانت كبيرة جدا.

فلنتصور أنهم فتحوا الأبواب من جهتهم، لكانوا قد الحقوا بالمسلمين كارثة كبرى، حيث كانت الأحزاب يدوسون المدينة على حين غرة بعشرة الاف مقاتل ليقتلوا رجالهم ويسبوا نساءهم واطفالهم ويغنموا اموالهم، ومن هنا فقد كان قرار عقابهم بعد خذلان المشركين ورجوعهم وبعد حصارهم فوريا وضروريا. ومع كل ذلك فكل من لم يرض منهم عن فعلهم الشنيع اطلقهم الرسول ليختاروا من الأرض ما يريدون، والباقي طبق عليهم القصاص العادل بعد أن خيرهم في من يكون حاكما بينهم وبين المسلمين فاختاروا حليفهم سعد بن معاذ الذي كان مصابا يتداوى في خيمة في مسجد رسول

---

[1] (الأحزاب: ٩ – ٢٧).

الله، فأتوا به على أتان يخر دمه من جرحه، فاستقبله قومه من أوس فقالوا ارحم ياسعد حلفاءك بني قريضة. فاجابهم: آن لسعد أن لا يخاف في الله لومة لائم، فقال: يارسول الله، فاني أحكم فيهم أن يقتل مقاتلتهم وسبى ذرارهم ونفسهم اموالهم، فاقر النبي حكمه، فقال (يا سعد حكمت فيهم بحكم الله)[1].

وهنالك أمر جدير بالذكر وهو أنهم خانوا قبل ذلك رسول الله في التعاون وتأييد بني النظير فاجلي بني النظير وابقاهم وأقرهم على ماكانوا عليه. فلم يقدروا هذا الموقف، ولو أنه عليه الصلاة والسلام طبق عليهم ما حكمت به التوراة في قتال الشعوب الأخرى، لوجب ألا تستبقي فيهم نسمة حية، وأن يبادوا عن بكرة أبيهم كما هو أمر الرب لموسى، ولكن نبي الاسلام اكتفى بقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وهذا بالنسبة لضخامة جرمهم رحمة لا مثيل لها.[2]

وحاول مستشرقوا اليهود في العصر الحديث عبر البحث عن الروايات الضعيفة والمبالغات التاريخية أن يوصلوا عدد الذين نفذ فيهم القصاص الى المئات، بينما عند التدقيق والتحقيق لم يكونوا يتجاوزون العشرات من الذين كانت سيوفهم تحصد رقاب المسلمين لو نجحوا في تنفيذ خياتتهم.

ويتناسى هؤلاء ماذا فعلت العصابات اليهودية في العصر الحديث في فلسطين عبر المجارز الرهيبة التي نفذوها في (قبية) و (ديرياسين) و (سموحه) و (صبره وشاتيلا) حيث هاجموا اهلها ليلا وقتلوا الالوف فيها رجالا ونساء واطفالا، وفي مجازر غزة في (٢٠٠٨) و (٢٠١١) عدد الذين قتلوا تحت انقاض قصف العمارات تجاوزوا خمسة الاف نفس بريئة في الرجال والنساء والولدان. وأما الجنود الأسرى من المصريين في سيناء، فقد مرروا عليهم الدبابات وهم أحياء، وبلغ مجموع هؤلاء قرابة ألف جندي في

---

[1] محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون، ح ٤، ص ١٥٧، ط٢، دار القلم، -بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م. وفقه السيرة – مصدر سابق، ص ٢٦٩ وما بعدها.

[2] (فقه الجهاد) للقرضاوي ٤٥٩/١ ط/ مكتبة وهبة الماهرة.

المعارك المتعددة، وبجانب هؤلاء قتل مئات المصريين بعصف الطائرات اليهودية ولم يرحموا حتى الاطفال في مدارسهم لاسيما في مدرسة (بحر البقر) للأطفال.

قال تعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

الخطاب في هذه الآيات مع المشركين الناكثين الذين بعد العهد نقضوا عهدهم واظهروا ما في ضمائرهم من الشر، وقدحوا في الاسلام وعابوه، وقبحوا أحكامه علانية، وهيئوا أنفسهم للقتال، فقاتلوهم لامن أجل قتلهم وإنما من أجل ارجاعهم الى الايمان والحق لامجرد ايصال الأذية اليهم.

وهؤلاء يستحقون أن يقاتلوهم لأنهم بدؤهم أول مرة في بدر، حيث قرروا استئصالهم ثم اعتدوا على فزاعة، ويذهب هذا القتال غيظ قلوبهم بما نالهم من الأذي بعد الحديبية ولم يكونوا قادرين على ردهم.

وهؤلاء اذا تابوا ورجعوا عن القتال يتوب الله عليهم، والآية تخبر بان منهم يتوب ويدخل في الاسلام، وهذا الذي وقع وحسن اسلامهم.[2]

كثير ممن لم يطلعوا على تفاصيل مقاومة المشركين الدموية العنيفة للاسلام وحربهم إياه ونبيه، ومحاولتهم المستمرة لإطفاء نوره، واضطهاد كل من يؤمن به، ويدعو اليه

---

[1] (التوبة: ١٢ – ١٤).

[2] أوضح للمعاني ٣٢٤/٢ – ٣٢٦.

بالتعذيب والقتل والتهجير وسلب الأموال وهدم البيوت والمقاطعة التامة لهم وتعريضهم الى الجوع والمرض، لا يتصبورون هذا الجو المتوحش الذي كان يقوده طعاة خائفون على مصالحهم في الزعامة والسيطرة على التجارة والإقتصاد واستعباد البشر.

فماذا ينتظر دين جاء للتحرير والتنوير، وتقرير عبودية الانسان لخالقه ليس لغيره. وتحقيق حقوق البشر وتثبيت كرامة الإنسان ورفع الظلم والاستلاب والاضطهاد من عليه.

ومع ذلك فقد واجههم بالدعوة السلمية الكاملة دون مقاومة أو اعلان حرب طيلة ثلاثة عشر عاما في العهد المكي.

أمن المقبول أن يستمر على ذلك حتى في الفترة المدنية، وهو يريد انشاء مجتمع موحد وموحد و دولة عادلة وحضارة متوازنة واستخلاص توجيهها من يد الطغاة والمستليين.

نعم هل يستمر على ذلك، حتى يقضى عليه المشركون المتحالفون مع اليهود في الجزيرة العربية، فينتهى الأمل الوحيد والأخير في الحياة لانقاذ البشر من ويلات الشرك والتوحش، تمهيدا لنقلهم الى عبادة خالقهم واستعادة حريتهم التامة لبناء الحياة الكريمة الآمنة.

هنا لابد من اعلان البراءة من المشركين، والبدء بالمقاومة الشريفة في حدودما بأذن الله بعيدة عن الأحقاد المكتومة والثارات السابقة.

استمع الى قوله تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾[1].

---

[1] (التوبة: ٤).

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾[2].

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[3].

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[4].

هذا موقف القرآن الكريم في رسم منظومته القتالية عندما وجهها في لحظة ما الى قتال الظالمين المشركين الذين أرادوا إطفاء نور الله الذي اشرق على البشرية في الظلمات المدلهمة من الطغيان والأعتداء وسفك الدماء وسرقة الأموال واستلاب المستضعفين في الأرض.

يظهر في هذه المنظومة القتالية في لحظات الحاجة، النبل الأيماني البعيد عن الغدر ونقض العهود وفي اللحظات الأخرى عندما تستدعي الضرورة أو الحاجة الملحة برفض الموقف الذليل العابد للشهوات الساكت عن الحق الراضي بالطغيان والظلم.

قال تعالى :

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

---

[1] (التوبة: ٦).
[2] (التوبة: ٧).
[3] (التوبة: ١٢).
[4] (التوبة: ١٣).

وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

مرة أخرى يقول (قاتلوا) ولا يقول (أقتلوا) لأن المقابل يقاتل بل يبدأ بالقتال.

من الصعب على الذين يعيشون في عصرنا الذي تغير فيه النظام العالمي بين الأمم والشعوب وعدم اعتداء البعض على البعض وحرية التمسك بالأديان وتقرير حقوق الانسان، و وجود هيئة الأمم ومجلس الأمن المسؤول عن الأمن العالمي ولو نظريا في ضبط علاقات الحرب والسلام في المجتمع الإنساني. عندما يجابهون مثل هذه الآيات الى أن يتعجبوا ويقولوا : كيف يمكن أن تخضع الأمم الى ديننا بالتهديد والحرب والاعتداء وفرض الشروط من جانب واحد وما الى ذلك.

مثل هذه النظرة إبتداء خطأ كبير فيما اذا اردنا أن نقيس عليه الماضي السعيد، حينما لم تكن هنالك ضوابط وقواعد تقف عندها الدول. انما كان الوصف العام هو أن البشرية كانت تعيش حالة التوحش وحركة الغرائز وعدم الرحمة بالمخالفين، فلا دين حق يردع الجميع، ولا قانون عقلي طبيعي يضبط القرارات العادلة.

كان هذا الوضع عندما ظهر الاسلام، الدين الأخير الحق، الذي أراد أن يعيد نظام العدل والعقل والسلام الى العلاقات الدولية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وأراد أن يضع الانسان في مركز الخلافة في الأرض، ويعيد اليه حقوقه وكرامته المسلوبة من لدن الحكام الطغاة الذين كانوا يملكون بانظمتهم الطاغوتية الأرض من علها وما عليها.

جاء الاسلام لانقاذ المستضعفين والمستلبين، وهم الاكثرية الساحقة على وجه الأرض، كي يحكموهم لا قلة ظالمة طاغية تمتص دماءهم وتفرض قانون الطغيان عليهم.

---

[1] (التوبة: ٢٩).

جاء الاسلام، ليغير نظام العيش والحكم والقضاء على أرض الواقع.

فكيف يرضى الطغاة من الاكاسرة والأباطرة والفراعنة والنماردة بذلك. فاذن من أول ظهور الاسلام، تحركت الغرائز المتوحشة عند هؤلاء ومحرفي الاديان للقضاء على الاسلام.

ومن هنا جاءت شريعته لمعالجة ذلك الوضع وانهائه الى الأبد، أراد العدالة والسلام والحوار في جميع نصوصه، ولكن كان هذا مستحيلا بدون اعداد القوة واباحة القتال عند الضرورة وتصحيح تحريفات الاديان في كل حين.

في مثل ذلك الأوضاع المتوحشة يجب على العقلاء والنبلاء أن يفهموا معاني هذه الآيات.

فكما ان الاسلام عالج موضوع الشرك ومحاولته في البقاء واطفاء نور الاسلام، كذلك لابد أن يعالج تحريفات اهل الكتاب و اعداد العدة للوقوف أمام دولها ومراكز القوة فيها عندما يحاولون القضاء على الدين الجديد.

مشكلة الاسلام لم تكن مع حرية التدين والأديان، وانما مع الطغاة الذين كانوا يستفيدون من بقاء الاديان محرفة بيدهم وبيد رجال الدين الخاضعين لمصالحهم الآثمة. إن بقاء الأديان محرفة لن يعيد الحق والعدل والسلام الى الأمم والشعوب.

وقتال أهل الكتاب لا يكون الا عند وجود مقتضيات القتال كالإعتداء على المسلمين أو بلادهم أو اعراضهم أو فتنتهم عن دينهم أو تهديدهم أو سلامتهم كما حصل من الروم، فكان ذلك سببا لغزوة تبوك أو حسبما يرى الإمام من المصلحة الحربية معتمدا على التحركات المشبوهة والاستعدادات الحربية والحشود العسكرية على حدود دار الاسلام.

(وقد سموا بأهل الكتاب، لأن لهم في الأصل كتابا سماويا، ويعتقدون في الجملة بالبعث والحساب والرسل والشرائع والملل.

ويسمون أهل الذمة، أى اهل العهد والميثاق الذي يوجب الاسلام معاملتهم بالعدل والمساواة بمقتضى ذمة الله ورسوله.

ويقال لهم ايضا المعاهدون، لأنهم يقيمون في دار الاسلام بموجب عهد أو معاهدة بين المسلمين وبينهم، ويجب تنفيذ أحكامها واحترامها من الجانبين، ويحرم ظلمهم وتكليفهم مالا يطيقون والصغار في الآية كما تقدم التزام الأحكام وليس الادلال والاهانة.[1]

إذن ربّ العالمين ثبت في علمه الأزلى أن المسلمين الذين آمنوا صدقا وعدلا بكلماته الأخيرة التي ارتضاها للبشرية سيواجههم أصحاب الأديان المحرفة ليس بالحجة والبرهان وانما بالحرب والبهتان. ومن هنا أعدهم نفسيا وواقعيا لهذه المواجهة الكبرى في اطار النظام العالمى الذي تحدثنا عنه، ولذلك قال لهم (قاتلوا) لماذا لان الأعداء لن يستسلموا الى السلام والوئام والتعاون مع المسلمين، وبناء على ذلك دعاهم الى ان يهيئوا القوة الشاملة حتى لا يظلموا وتدوس بلادهم أقدام الكافرين، ولاسيما أنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق، فهؤلاء عندما يهاجمون المسلمين، فلا بد أن ينالوا عقابهم على ظلمهم وعدوانهم وتعديهم على دين المسلمين ووحدتهم بهدف انهائهم والقضاء على دينهم.

فثمن السلام معهم وعيشهم بوئام في مجتمعهم كمواطنين أن يدفع رجالهم القادرون على حمل السلاح دون نسائهم واطفالهم وشيوخهم. مبلغا معينا جزاء حمايتهم والدفاع عنهم، كالدفاع عن المسلمين.

يقول الإمام مالك :

(مضت السنة أن لا جزية على نساء أهل الكتاب ولا على صبيانهم، وأن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الذين بلغوا الحلم ويقرون على دينهم ويكونون على ما كانوا

[1] التفسير المنير لوهبة الزحيلى، ج ١٠، ص١٧٥ – ١٧٦.

عليه. هذا الذي ادركت أهل الرضا من أهل العلم في بلدنا)[١].

يقول المؤرخ الانجليزى سير توماس أرنولد :

(ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين – كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لونا من الوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام. وانما يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت ديانتهم تحول بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحماية المال المتفق عليه ذكروا صراحة أنهم دفعوا هذه الجزية على شريطة، أن يمنعونا اميرهم البغي من المسلمين وغيرهم وذكر أرنولد امثلة كثيرة في هذا الباب.[٢]

وكذلك حدث أن سجل خالد بن الوليد في المعاهدة التي أبرمها مع أهالى المدن المجاورة للحيرة قوله : فان منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا.[٣]

(ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط، من تلك الحادثة التي وقعت في عهد الخليفة عمر، لما حشد الأمير اطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين كان لزاما على المسلمين – نتيجة لما حدث- أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحد قت بهم، فلما علم بذلك ابو عبيدة قائد الجيش الاسلامي كتب الى عمال المدن المفتوحة في الشام، يأمرهم بجني ما جبي من الجزية من هذه المدن وكتب الى الناس يقول : (إنما رددنا اليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قداشترطتم علينا أن نمنعكم واننا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط الى آخره) [٤].

وهنالك امثلة كثيرة في هذا الباب رواها ثقاة المؤرخين كالطبري والبلاذري.

---

[١] الموطأ ٢٩٠/١، رقم ٧٤٥، ٧٤٦.

[٢] الدعوة الى الاسلام، نقلا عن (فقه الجهاد) للقرضاوي ١٠٣٦/٢

[٣] تأريخ الطبري ٢٠٥٥/١ ، نقلا عن القرضاوي ١٠٣٦ – ١٠٣٨.

[٤] الخزاج لابي يوسف، ص٨١، نقلا عن فقه الجهاد للقرضاوي ١٠٣٧/١.

وقال الإمام حسن البنا (رحمه الله تعالى) :

(الجزية ضريبة كالخراج، تجبي على الاشخاص لاعلى الأرض، والكلمة مشتقة من الجزاء، لأنها تدفع نظير شيء هو الحماية والمنعة، أو الاعفاء من ضريبة الدم والجندية...

ولقد قرر الاسلام هذه السبيل ولجأ اليها مع غير المسلمين من باب التخفيف عليهم والرحمة بهم، وعدم الاحراج لهم، حتى لا يلزمهم أن يقاتلوا في صفوف المسلمين، فيتهم انما يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال، فهي في الحقيقة (امتياز في صورة ضريبة، وفي الوقت نفسه احتياط لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوى العقيدة الصحيحة والحماسة المؤمنة البصيرة.

ومقتضى هذا أن غير المسلمين من أبناء البلاد التي تدخل تحت حكم الاسلام إذا دخلوا في الجند، أو تكفلوا أمر الدفاع أسقط الإمام عنهم الجزية، وقد جري العمل على هذا فعلا في كثير من البلاد التي فتحها خلفاء الاسلام، وسجل ذلك قوات الجيوش الاسلامية في كتب ومعاهدات لا زالت مقرورة في كتب التأريخ الاسلامي)

يقول العلامة القرضاوي :

(وفي عصرنا أصبح أهل الذمة يدخلون الجيش بحكم التجنيد الأجبارى ويدافعون عن الوطن كالمسلمين فلا غرو أن تسقط عنهم الجزية)[1].

هذا النوع من المعاملة ليس موجها الى المواطنين من أهل الكتاب بمفهوم عصرنا وانما الى الحربيين الذين ينتهى بهم اعتداؤهم الى هذا المصير، ليس للاستعباد وتغيير الدين بالأكراه وسلب حرية الاختيار.

وعلى ذلك فاذا تغير الوضع، وتبدلت الظروف، وغدا أهل الأديان اهل الأرض، مواطنين مسالمين يشتركون في حماية الوطن عبر الجندية الحكومية، فلا جزية عليهم،

---

[1] فقه الجهاد ٢/٨٥١.

لأنهم يحمون انفسهم ووطنهم بانخراطهم في الجيش الوطني الذي يدافع عن حدود الوطن ومجموع الأمة.

فلا يمكن قياس وضع أهل الأديان والملل والنحل في النظام العالمي الحديث على وضع الحروب والعلاقات الدولية القائمة على الحروب. ومقومات النظام الحربي والسياسي والاجتماعي الاسلامي يرحب بذلك اليوم لأن الهدف الاساس الذي يريده الاسلام، الوصول الى عالم حر مسلم. [١]

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣ ﴾ [٢].

من أجل فهم هذه الآيات ذكرنا أن كلاً منها لابد أن يفهم داخل منظومتها الكلية، فلقد مرت بنا آيات كثيرة تدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم لم يوجه المسلمين لمحاربة المخالفين دون سبب مقبول ومعقول. فهؤلاء من القبائل القريبة المحيطة بمركز الدولة كانوا يشكلون خطر اكيدا عليها وعلى الأمة، وكانوا من السهل أن يكونوا أداة للأبعدين من قوات الفرس والروم في الضغط على المسلمين بل في غزوهم، فتطهير المحيط كان ضروريا من أجل المقابلة الواضحة مع الأعداء الرئيسيين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ويريدون أن يقضوا عليهم قضاء مبرما.

ثم إن الله تعالى اختار الأمة العربية بمجموعها لتبليغ رسالة الاسلام الى العالم فلا يمكن أن تبقى جيوب هنا وهناك في داخلها، يفجروها في كل حين حصولا على المصالح. وعدم فهم هذه الحقيقة الكلية انتهى الى كوارث منذ أيام الخوارج الأولى الى

---

[١] راجع دائما عن تقريرنا لكل حقيقة في هذا الباب الآيات الحاكمة على نظام الحرب والسلام في الاسلام.

[٢] (التوبة: ١٢٣).

امثالها في عصرنا الذين آخرجوا آيات منفردة من سياقاتها وحركوها باتجاه الهجوم المادى هنا وهناك في العالم الاسلامي وخارجه. فاظهروا الاسلام بانه دين يريد أن يخضع البشرية الى اتجاه واحد من خلال المذابح وسفك الدماء. وهذا مضاد للقيم العليا من العدل والخير والأمن والسلام والمعروف التي جاء بها الاسلام واضحة جلية ثابتة.

استنتاج :

من الخطأ المبين والغفلة الجاهلة أن يأتي باحث في عصرنا، وينظر في آيات القتال مجزأة ويبني عليها جميعا بناء واحدا وحكما واحدا من خلال آية واحدة، تأمر بقتال الكافرين أو المشركين أو أهل الكتاب، فضلا عن تجاوز الآيات الكثيرة الحاكمة على المنظومة بكاملها.

وقد يقرأ ذلك الباحث آية معينة فيقفز من فوق العصور قفزة واحدة الى عصرنا ويفسرها بعيدا عما انتهى اليه عصرنا من الإتفاقات و المعاهدات ودساتير حقوق الإنسان وغيرها دون أن يميز بين العصور من نظم واعراف ومواقف، أو يسحب العصر الذي نزل فيه القرآن دون أن يدرس ما خصائصه، وهل مواجهة القرآن لها كانت عادلة أو ظالمة.

لو راجعنا أوضاع الناس في الجزيرة وجدناها تتكون من القبائل الكثيرة المتنوعة التي كانت تعيش حالة الخصام الدائم، لم تكن تخضع الى دستور دائم، ولا اتفاقات عادلة، ولا قيم ثابتة عاقلة مستقرة، وانما حركتها الدائمة كانت مبنية على الظلم، إن كانت مصالحها تقتضى ذلك. ألم يقل شاعرهم الكبير زهير بن ابي سلمى :

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

وكان النظام الاجتماعي قائما على مجتمع السادة والعبيد، وأي نظام آخر كان مرفوضا بقوة، لان الطغاة كانوا يريدون المحافظة على مصالحهم من خلال وضعهم القائم بأي ثمن.

ألم يطلبوا من أبي طالب أن يجمعهم بأبن أخيه (محمد) وقالوا له أنه صبأ عن آلهتهم، وفرق بين جموعهم وساوى بين السادة والعبيد. وبعد أن عرضوا عليه ما عرضوا من اغراءات سياسية واقتصادية وجنسية قال : قل لهم يا عم. أدعوهم الى كلمة واحدة

لاغير، ولا أريد منهم شيئا مما يعرضون عليّ سارع ابو جهل فقال: يا محمد وعشرا معها، ولكن ما الكلمة التي تدعونا اليها، قال : أدعوكم الى (لا إله إلا الله) حينئذ انتفضوا وخرجوا بغضب شديد رافضين، انتشروا في فجاج مكة منذرين قومهم التعس بأيديهم الى هذا الخطر العظيم الساحق الماحق، الذي يدعو الى توحيد الله ويعيد الى الانسان كرامته وحقوقه، وينقذهم مما هم فيه من الشقاء وسلخ الآدمية، ويبني مجتمعا حضاريا عابدا عالما عاملا طاهرا، وينقله من التخلف الى صعيد بناء مقومات أمة متحضرة زاهرة.

هذا الموقف الشركي الصاخب هو الذي نقله لنا القرآن الكريم في صدر سورة (ص)، بقوله :

﴿ صٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَاقٌ ۝٧ ﴾[1].

ثم بدؤا بملاحقة كل من يؤمن بهذا الدين، مضطهدين ومعذبين وقاتلين، وجابهوا الرسول ومن معه بالدعايات والإتهامات والحروب والتخطيط مع اليهود في سبيل اطفاء نور الاسلام الذي جاء لتحريرهم من أنفسهم وتحرير الناس من عبوديتهم وتوحشهم.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ ﴾[2].

أيجوز أن يفكر عاقل يحترم آدمينه أن يقول بأن هذا الدين الرباني الجديد ونبيه والمؤمنين به لا بد أن يسلموا انفسهم الى ساطور القصابين المشركين كي يستمروا في

---

[1] (ص: ١ – ٧).
[2] (الصف: ٨).

ذبح ابنائهم، وفرض جاهيليتهم الجهلاء عليهم، لاسيما إذا كانوا هم اليادئين بالهجوم وقرار إنهاء مجتمع التوحيد والايمان والاصلاح أما اذا خرجنا من الجزيرة العربية الى خارجها فماذا نرى ؟

نرى شعوبها امية جاهلة مستضعفة مستلبة في طاقاتها، تعامل من لدن الأباطرة والأكاسرة والملوك حيوانات في حظائرها عبيدا حتى العظم بيد هؤلاء الطغاة والمجرمين، يسمعون أن دينا جديدا على حدود بلادهم يريد أن يحرر هذه الشعوب المستعيدة ويعيد اليها كرامتها وحكم نفسها بنفسها، حتى يتساوى السادة والبيد. يعبدون جميعا الها واحدا ويخضعون الى شريعة تأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

هذا الدين الجديد يجعل الجماهير المستضعفة هم الحكام الذين يجب أن يحكموا أنفسهم خلال الشورى الجماعية. وهذا الجعل هو الإرادة الالهية تجلت في القرآن الكريم بلغة عربية مبينة :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

لماذا ؟

لأنه ككل الطغاة :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[2].

---

[1] (القصص: ٥ – ٦).

[2] (القصص: ٤).

إن الاسلام لم يكن يريد فرض نفسه على الشعوب، وانما أراد أن يزيح من فوق الشعوب هؤلاء الطغاة المجرمين، كي تكون حرة في التمتع بإنسانيتها واختيار دينها واستعادة كرامتها البشرية.

إذن كيف لا يخططون للقضاء على هذا الدين التوحيدى المحرر. لو فحصت التاريخ بدقه لوجدت أن هؤلاء المجرمين بدئوا يتحركون للهجوم على الجهورية الربانية الجديدة في مكة والمدينة للقضاء على الاسلام ودولته العادلة، واعادة كل المجتمعات التي يمكن أن تتحرك في المستقبل الى العبودية. وتحركهم في الصراع الانساني على الأرض كان طبيعيا جدا، ولو لم يتحركوا كان هو العجب وليس العكس.

وهل يراد من الجمهورية الاسلامية الحرة الجديدة التي يقودها المستضفعون بقيادة النبي الخاتم وخلفائه الراشدين من بعده، أن يستسلموا ال هؤلاء الطغاة المستلبين من جديد ويقضوا على أمل الشعوب في الخلاص النهائي من الاستضعاف والاستلاب والظلم والطغيان واستمرار العبودية.

إن المسلمين في تلك المواجهات الدموية ضحوا بارواحهم من أجل أن تعيش الشعوب المظلومة في راحة واطمئنان وأمن وسلام.

ومجمل القول :

لابد لمن يريد أن يفهم منظومة آيات القتال في القرآن الكريم وكيفية مواجهة المسلمين من خلالها أنظمة التوحش الفرعونية في العالم الذي واجهوه، أن يكون عادلا في الحكم، ويقارن بينها وبين انظمة القتال يومئذ وكيف لم يفرقوا بين الشيوخ والنساء والاطفال، وكيف كانوا يدوسون المدن ويخربونها ويصنعون بها تلولا من جماجم الذين يدافعون عن مشعوبهم وبلادهم.

المؤرخ الفرنسي (كوستاف لوبون) يعترف بنزاهة الفتوحات الاسلامية في كتابه المشهور عالميا بـ(حضارة العرب) الذي ترجمة الى العربية عادل زعيتر.

(وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب واسباب انتصاراتهم أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن. فقد ترك العرب الفاتحين المغلو بين أحرارا في أديانهم. فاذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الاسلام واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين، مما لم يروا مثله من ساداتهم السابقين، ولم ينتشر الاسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها..)[١].

ويلخص ابحاثه بعد ذلك فيقول (لم يجد التاريخ فاتحين أرحم من العرب). وهو يذكر حضارة العرب، لأنهم كانوا هم وحدهم أمة الاسلام في المرحلة الأولى من الفتوحات الاسلامية.

ويقول المؤرخ الانجليزى توماس أرنولد (ظهر أن الفكرة التي شاعت بان السيف كان العامل في تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق، وأن السيف إذا كان يمتشق أحيانا لتأييد قضية الدين فان الدعوة والاقتناع وليس القوة والضعف، كاناهما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة)[٢].

ويقول العقاد (إن السيف لم يعمل في انتشار الدين إلا القليل مما عملته القدوة الحسنة والاقناع، فان البلاد التي قلت فيها حروب الاسلام هي البلاد التي يوجد فيها اكثر مسلمي العالم وهي أندونيسيا والهند والصين وسواحل افريقيا) [٣].

إذن هؤلاء الذين يتحركون في اطار العنف والدم. ويريدون أن يفرضوا اسلامهم على المجتمعات، فلابد أن يدرسوا بدقة الفترة التي ظهر فيها الاسلام والظروف المظلمة التي كانت تلف المجتمعات الانسانية، وكيفية تنزيل الرسول البلاغ المبين على الواقع الانساني من خلال سياساته الشرعية. ثم يسيروا مع تقليات التاريخ الاسلامي، مجتمعات ودولا لكي يقتنعوا أن مجرد الحماسات دون الفطن لن يجدى نفعا في إعادة

---

[١] حضارة العرب ١٦٢.

[٢] الدعوة الى الاسلام ٨٨، ط١، القاهرة.

[٣] الديمقراطية في الاسلام، ص٨٢ – ٨٣، ط٤. دار المعارف بالقاهرة – ١٩٧١ م.

بناء المجتمعات المنهارة حضاريا الى الاسلام، لأن لها قوانين تسيرها كقوانين الكون والحياة المادية، كل ذلك من أجل التخطيط للبناء الاسلامي في اوضاع عالمية معقدة جدا، بفكر سديد، وتدبير دقيق وعمل تربوي سلمي متواصل، بعيد عن إدعاء امتلاك الحقيقة.

الفصل الثالث
أخلاقيات الحروب الاسلامية

قد يعتقد بعض الناس أن قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

إنما هو ابتداء تحضير للحرب، وان المسلمين دائما هم المبادرون للحرب، وهذا الاعتقاد منهم خطأ فاحش، بل جهل واضح بمنظومة القتال في الاسلام، فهذه الآية جاءت للردع فيما اذا فرضت الحرب على المسلمين. والحرب على المسلمين كانت متوقعة من اصحاب المصالح الشركية في الداخل واصحاب المصالح الطاغوتية في الخارج، لأن الاسلام كما ذكرنا جاء لتحرير الانسان في عقله وكرامته وسلمه. واستبعاده وتسخيره. ومع كل الاهداف التي كان الاسلام يريد أن يحققها في اسرع وقت لتأمين نفسه وتأمين خلق الله معه، التزم بجملة من الاخلاقيات المنبعثة من توجيهات المنظومة الالهية من أجل الا يقع ظلم بأي شكل من الاشكال.

---

[1] (الأنفال: ٦٠).

منها :

١- الاعلان أن العلاقات بين البشر هي علاقات السلام والوئام، من أجل العيش المشترك والتعاون العام، لأن التنمية والانتاج وايجاد حضارة انسانية متوازنة تحقق الخلافة الانسانية في الأرض لاجل الأمانة التي أخذها الانسان على عاتقه الثابتة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[1].

٢- (الحرب في الاسلام تقع في حالة الضرورة فقط كالدفاع عن النفس أو رد المعتدي أو تأديب أحد المتمردين الخارجين عن النظام أو القاطعين للطريق أو السارقين والقاتلين وغير ذلك، فالحرب ليست الغاية وانما هي وسيلة لتطهير المجتمع وتأمينه وتسهيل تبليغ الدعوة وتأمين الطريق)[2].

٣- ترك المبادرة بالشر والعدوان، وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[3].

٤- و النهى عن القتال في الاشهر الحرم كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[4].

---

[1] (الأحزاب: ٧٢).

[2] اخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، ٢٠، د. اسماعيل عبدالفتاح، ط١، ٢٠١١ م، ١٤٣٢ هـ.

[3] (المائدة: ٢٥).

[4] (التوبة: ٣٦).

٥- عدم التعرض للمدنيين وقتال المقاتلين وحدهم كما قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1].

٦- الوفاء بالمعاهدات المبرمة بين أطراف النزاع، وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾[2]

وقال : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾[3].

٧- مراعات الأخوة الانسانية، وفي سبيل ذلك يقول تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[4].

ويمكن أن نلخص أهداف التشريع الاسلامي من القتال بما يأتي :

الدفاع عن النفس وردّ المظالم والعدوان على أرض المسلمين.

تأديب الناكثين للعهود والمواثيق ونصرة الحق والعدل.

ازالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة الاسلامية.

إتاحة الفرصة الكاملة للشعوب المقهورة، باختيار الدين الذي تريد.

منع الفتنة في الدين وحماية المستضعفين في الأرض والمطالبة بالحقوق والمعاملة العادلة .

فرض السلام الداخلي بقوة القانون والعدالة الدولية.

---

[1] (البقرة: ١٩٠).
[2] (المائدة: ١).
[3] (النحل: ٩١).
[4] (النساء: ١).

الكف عن القتال اذا كف العدو عنه والاستجابة لدعوة السلم والسلام والمهاد قال تعالى : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ ﴾[1]. وقال : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾[2].

وقد يسأل سائل فيقول اذا كان الاسلام يريد العلاقات السلمية بين الشعو والأمم فلم لم يحرم الحرب نهائيا.

نقول : هذا لا يمكن أن يحصل يوما من الأيام في هذه الدنيا، لان المصـ متضاربة، والأهواء المتردية موجودة، وحب السيطرة والطغيان غالب من خلال النف الأمارة، ثم ان الحرب قد تكون ضرورة لرد الاعتداء، وكبح الظالم والطغيان، وانق المظلومين وتحرير المستلبين، والحفاظ على الكرامة، وتثبيت قانون العدل و الحق السلام. وفي نهاية حرب طالوت لجالوت يقول تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

إن دين الاسلام مع أنه مثالي، غير أنه واقعي منصف في جميع أحكامه، يراع فطرة البشر، وظروفهم الحياتية التي تتغير من زمن الى زمن ومكان الى مكان، وبقدر يتعلق الأمر بمقومات نظام القتال في القرآن. وضع حدودا حاسمة وتوجيهات سديـ ومعوقات كثيرة تحول بينه وبين الإنحراف والظلم والطغيان، فلو قارنت ماوقع بـ المسلمين وغيرهم من القتال، لوجدت فرقاهائلا بين الحالتين، بل ولا وجه للمقارن فانظمة الاسلام مبنية على التوجيه الألهي والتسديد العقلي والإنصاف الانساني، بين ما وقع في الأنظمة المتنوعة المقابلة كان مبنيا على التوحش المحض.

---

[1] (البقرة: ١٩٢).
[2] (الأنفال: ٦١).
[3] (البقرة: ٢٥١).

خذ مثلا ما فعله الصليبون في القدس الشريف عندما احتلوها في نهاية القرن الخامس الهجري، فقد سفكوا دماء اكثر من سبعين الفا من سكانها، حتى ان ركب خيولهم كانت تغوص في دماء المسلمين في وادي الموت، وعندما استرجع صلاح الدين الايوبي القدس بعد قرن من الزمان، لم يقتل من سكانها أحدا، بل جمع بين الأسر و أحضر السفن لنقلهم الى بلادهم الأوربية، التي جاؤوا منها.

خذ مثلا آخر في الجزائر التي احتلها الفرنسيون مائة وثلاثين سنة، وقتلوا ملايين من الجزائريين المسلمين ظلما وعدوانيا، فلما استخلص الجزائريون بلدهم عبر ثورة ومقاومة قدمت اكثر من مليون شهيد، لم يهاجموا الأحياء الفرنسية.

وصايا رسول الله المقاتلين :

كان رسول الله يوصي اصحابه فيما خاض من حروب وغزوات دفاعية أو عقابية، فيقول : لا تقتلوا شيخا فانيا ولاطفلا صغيرا ولا امرأة. لا تغدروا ولاتقتلوا الولدان ولا اصحاب الصوامع.[١]

و روى انس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (انطلقوا باسم وبالله وعلى ملة رسول الله، ولاتقتلوا شيخا فانيا ولاطفلا ولا صغيرا ولا امرأة ولاتغلّوا)[٢].

واقتدى ابوبكر الصديق رضي الله عنه فيقول : (أيها الناس لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولاتمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولاشيخا كبيرا ولا إمرأة ولاتعقروا نخلا ولا تحرقوه ولاتقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة...)[٣].

ومن هنا فان الفاتحين من المسلمين، لم يخربوا في طريقهم الى القضاء على الطغاة مدينة أو قرية عامرة، ولم يستعبدوا فيها أحدا، وكانوا يقاتلون الذين يقاتلونهم،

---

[١] اخلاقيات الحرب، مصدر السابق، ص ٥١.
[٢] رواه ابو داوود حديث رقم ٢٢٤٧، عن أخلاقيات.
[٣] اخلاقيات، ص٥٢.

ويستبعدون منهم، من لم يشتركوا في قتالهم بعكس الدول الأخرى التي كانت تزحف على بلاد عدوها. فتخرب البلاد والعباد قتلا واسرا واستعبادا.

ولم يحدثنا التاريخ أن الجيش الاسلامي في أيام الفتوحات دخلت في المدن التي دخلتها، خربتها وقتلت أهلها ودمرت عمرانها وسرقت ثرواتها، عدا ماكان تجده من ثروات الطغاة في قصورها كقصور كسرى وغيره من الملوك الظالمين. [١]

يقول المؤرخ الفرنسي (جوستاف لون) في كتابه (حضارة العرب)

(والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم) [٢].

ولم يدخل جيش اسلامي في بلد من البلاد المفتوحة دون عرض شروط الاسلام على أهلها. من ذلك حين هاجم الجيش الاسلامي في أيام الأمويين مدينة (صفد) من أعمال سمرقند بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي بدون انذارهم، وعرض تلك الشروط عليهم. شكوا وضجوا وكتبوا الى عمر بن عبدالعزيز بما فعل قتيبة من المباغتة وكيف أخذ بلادهم دون أن يبصرهم بشروط الاسلام (الاسلام أو الجزية أو الحرب) فكتب الى الوالي هنالك سليمان بن أبي السرى، إن أهل سمرقند قد شكوا ظلما أصابهم فاذا اتاك كتابي هذا فاجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فان قضى لهم، خرج العرب من معسكرهم وردهم الى ماكانوا عليه قبل أن يظهر عليهم قتيبة. و نفذ الوالي أمر الخليفة، وحكم القاضي لأهل صفد بخروج الجيوش الاسلامية من أرضهم لأنهم دخلوها بصورة غير مشروعة لا يقرها الاسلام، ومن بعد ذلك يجوز لقتيبة أن ينابزهم على سواء ويعرض عليهم شروط الاسلام فيكون صلحا جديدا أو حربا مشروعة، فقال أهل صفد، بل نرضى بما كان ولا نريد حربا لما وجدوه من قوانين الاسلام

---

[١] اخلاقيات الحرب، مصدر سابق، ص ٨٠.

[٢] ص٦٠٥، ط٣، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٦.

العادلة في الحرب.[١]

ومن مبدأ طلب الاسلام الأمن والأمان للناس جميعا، والمحافظة على الشروط والمواثيق وكراهية استمرار سفك الدماء لمجرد امتلاك القوة أعطى أمير المؤنين عمر بن الخطاب الأمان لأهل إلياء (القدس) في الوقت الذي كانت جيوشه تستطيع أن تقتحمها، و رضي بما عرضه رئيس اساقفتها (فرفوريوس) من تسليم المدينة لعمر نفسه (رضي الله تعالى عنه)، فوقف الجيش الاسلامي على مشارفها لحين مجئ أمير المؤمنين على الرغم من مشاغله ولما جاء أعطاهم هذا الأمان التاريخي الذي قال فيه:

(أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلباهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه تسكن كنائسهم ولاتهدم ولا ينقص منها ولا من غيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم، ولايكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وان بخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فانه يأمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية.[٢] ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على انفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم)[٣].

ولقد حدثتنا حوادث دخول المسلمين الى المدن المحررة من حكم الطغاة وتحريرها من العبودية والاستلاب، كيف عاملوا أهلها من خلال الخلق الرفيع والرحمة، نستطيع أن نلخصها بما يأتي.

---

[١] اخلاقيات الحرب — مصدر سابق، ص٦٩، ١٥٧، نقلا عن القانون الدولي الانساني في الاسلام لجعفر عبدالسلام، ص ٧٣.

[٢] ذكرنا سابقا أن أخذ الجزية كان نظاما عالميا من الأمم المغلوبة، ولوقارنا ماكان يأخذه المسلمون بما كان يأخذه غيرهم لكانت قليلة جدا. ثم إنها لم تكن تؤخذ من الشيوخ والنساء والأطفال وكان يؤخذ مقابل عدم اشتراك المقاتل في القتال مع المسلمين فاذا اشترك سقط عنه.

[٣] الديمقراطية في الاسلام، للعقاد — مصدر سابق.

- لم يقتلوا الشيوخ والنساء والاطفال لاقبل القتال ولابعد القتال.
- الجنود المسلمون ومن استقروا فيهم منهم لم ينتهكوا أعراض النساء.
- لم يقاتلوا الرجال العزل من السلاح.
- لم يدهوا المزارع ولم يقتلعوا الأشجار.
- لم يروعوا القرى والمدن الأمنة التى كانوا يمرون بها.
- لم يهبوا الناس بأي نوع من الارهاب لاجبار الناس على دخول دينهم.
- لم يقوموا بسرقة أموالهم وتخريب بيوت تجاراتهم.
- الدولة لم تجمع الضرائب المرهقة ولاحظوا ظروف البلاد التي دخلوها.
- احسنوا الى أهل البلاد التي فتحوها وعاملوا الناس معاملة حسنة.
- عاملوا العبيد الذين كانوا يقاتلونهم معاملة انسانية كريمة.
- لم يوزعوا النساء المقاتلات في دور البغاء كما كانت تفعل الفرس والروم، وانما قضى الله لهن نظام ملك اليمين، وهو نظام شبيه بنظام الزواج إذ كل واحدة تختص برجل مسجل في القضاء، يعاملها معاملة انسانية حسنة.

كل ما كتبنا باختصار عن منظومة القتال في الاسلام من حيث مقدماتها ونتائجها والمبادئ الشرعية الانسانية الحاكمة عليها كانت منظومة عادلة. ربانية بعيدة عن انظمة التوحش التى كانت سائدة ومازالت في المجتمع الانساني.

ومجمل القول : أن الاسلام ليس فلسفة أو فكرة أفرزها العقل البشرى الذي قد يحيط به الهوى فيرديه ويخرجه عن فطرته الصافية. ومن المعلوم أن الهوى في القرآن الكريم هو ميل النفس الأمارة بالسوء، وقد حذر منه الاسلام الانسانية جميعا، حتى الصالحين منها، بل حتى الأنبياء فيهم لانه كانوا بشرا لهم غرائزهم، ولكن الله تعالى عصمهم كي يبلغوا رسالاته الى البشرية عبر العصور.

ولو سجلت خلال قراءتك القرآن الكريم الآيات الكريمة التي ورد فيها لفظ الهوى، لتجاوزت بك العشرات موجهة الى الاصناف جميعا.

إذن إن لم يكن القرآن كذلك، فما هو ؟

إنه الوحي الالهى الثابت الى خاتم رسله سيدنا محمد ﷺ.

والقرآن من أوله الى آخره مبني على تجليات اسماء الله الحسنى وصفاته العلى. فهي اذا اجتمعت متوازنة متكاملة، فانها تنتج الوسطية العادلة في افكار البشرية وتصرفاتها، وهذا هو تصرفات رسول الله وصحابته المجاهدين تعالى التي كانت منفذة للقيم الكلية الحاكمة التي ضبطت حركة القتال في تأريخ الاسلام.

الفصل الرابع
إدارة التوحيش في ضوء
منظومة آيات القتال في القرآن الكريم

هذا المصطلح اذا كان مصطلحا حديثا، فإن مضمونه قديم، ولم تخل حقبة من حقب التأريخ الاسلامي من جماعة علنية أو سرية تعمل بنظام التوحش. ويعنى العمل في ادارة التوحش بنظام العنف الدموى في إخضاع مجتمع الفوضى المتوحشة (الخلاقة) للوصول الى الاهداف التي تؤمن بها كل جماعة في ظرفها الزمكاني.[1]

وقد تكون تلك الأهداف اسلامية محرفة أو غير اسلامية. أما الاسلامية المحرفة منها فتبدأ بالخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع على ابن ابي طالب، وقد كانوا ضمن جيشه في قتال معركة صفين التي وقعت بين جيشه رضي الله عنه وبين جيش معاوية بن أبي سفيان والى الشام.

نعم خرجوا عليه، عندما رضى عليّ كرم الله وجهه بالتحكيم، لوضع دماء المسلمين، وحفظ كيان الدولة وهيبة الأمة أمام المتربصين بها كدولة الروم وبقايا بيوتات

[1] ابوبكر ناجي – ادارة التوحش.

المجوس، والمنافقين في الداخل. وكان ذلك من عمق إيمان عليّ واخلاقه العالية وفهمه السديد لمقاصد الشريعة واصولها وقواعدها وكيفية تنفيذها بمراعاة مآلاتها.

إن أول جريمة كبرى ارتكبوها عندما قتلوا خليفة رسول الله ﷺ في فجر مظلم حيث ضربه الشقي عبدالرحمن بن ملجم الخارجي من الخلف فوقع شهيدا، حيث كان يحسن اليهم لما فارقوه بل كفروه، فقال لما سألوه عن موقفه منهم قال : لانمنعهم من مسجدنا ولا نحرمهم من فيئنا.[١] ولما سألوه اكفارهم ؟ قال من الكفر فروا ولما قالوا : أهم منافقون ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، قالوا : فمن هم يا امير المؤمنين ؟ قال: هم إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم.[٢]

ولم يقاتلهم رضي الله عنه حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على اموال المسلمين وغدوا خطرا على الدولة، فبعث اليهم إبن عمه عبدالله بن عباس، فناظرهم فتبين مدى جهلهم بنصوص القرآن الكريم، وأنهم لم يكوانوا من اهل العلم والفقه.[٣]

ثم بعد ذلك تحولوا الى عصابات هنا وهناك يقطعون الطريق ويمتحنون الناس في رأيهم بعثمان وعلى رضي الله تعالى عنهما، فاذا قالوا : نواليهما قتلوهم. وقد ارتكبوا جرائم كبيرة يومئذ، وحوربوا من حكام المسلمين حتى قضوا عليهم.

والدليل القاطع على ضلالة هؤلاء وبدعتهم أنه لم يوافقهم أحد من الصحابة الكرام ولا تابعوهم، ولا أى إمام من ائمة المذاهب الفقهية المشهورة وغير المشهورة إذ يعلمون جميعا أن منهجم لم يؤد إلا الى الضلالة وسفك الدماء ونشر الخراب والتفرق في الصف الاسلامي الواحد.

الم يعترض أولهم أبو خويصرة على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال يا رسول الله إتق الله فقال : ويلك أو لست أحق الأرض أن أتقى الله. فقال خالد بن الوليد : يا

---

[١] د.على الصلابي – أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين على بن ابي طالب، ٦٨٤.

[٢] المصدر السابق، ٦٩٣.

[٣] راجع كتابي (قواعد التكفير)، ص ٣٤.

رسول الله ألا أضرب عنقه. فقال لا (لعله أن يكون يصلي)، قال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله (إني لم أؤمر أن انقب عن قلوب الناس ولا اشق بطونهم).

ثم نظر اليه وهو موقف، فقال :

(يخرج من ضضئ هذا قوم، يحقر أحدكم صلاته الى صلاتهم وقيامه الى قيامهم وقراءته الى قراءتهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)[1]

وفي رواية أخرى (يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان)[2].

وهكذا نشر هؤلاء الذعر والترويع والدماء بين المسلمين ردحا من الزمان، غير أن منهج العنف والقتل والدماء استمر في المجتمع الاسلامي، هذه المرة بيد أوشاب اليهود ودهاقين المجوس الذين تسربلوا كذبا بسربال حق آل البيت في الخلافة، واقتربوا من أئمتهم وحرفوا مقالاتهم، واخترعوا الروايات الكاذبة عليهم، وادعوا أن الإمام الصادق أوصى بالإمامة لإبنه اسماعيل الذي مات في حياته رضى الله عنه ولم يعقب أحدا، فادعى هؤلاء أن له ولدا اسمه محمد، فأخفوه عنهم، ووضعوا بدله (عبدالله بن ميمون القداح) الذي قاد هو واولاده واحفاده فرقة الاسماعيلية الذين أولوا النصوص القرآنية تأويلا باطنيا والهوا أئمتهم والغوا الفرائض الاسلامية، وتفرع منهم القرامطة الذين ظهروا في الكوفة ولجئوا الى الترويع والارهاب والقتل والمذابح ومن جرائمهم هجومهم على البيت الحرام وقتل ثلاثين الفا من حجاج ذلك العام (٣١٧ هـ) بقيادة أبي طاهر القرمطي، وأخذوا الحجر الأسود الى البحرين، التي انشئوا فيها دولتهم المعروفة، وأما في مصر فانشئوا دولتهم الفاطمية، وتفرع منهم الحشاشون بقيادة الحسن بن الصباح

---

[1] البخاري ٣/١٢١٩، ومسلم ٢/٧١٤.
[2] البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤).

الذي نشر الأرهاب الدموى المخيف في المجتمع الاسلامي، وانحصر في قلعة (آلموت) جنوبي بحر قوزين، من نواح بلاد الفرس (ايران). فكان أن قتلوا عماد الدين الزنكى في بلاد الشام والوزير السلجوقي المشهور نظام الملك، وحاولوا عدة مرات قتل صلاح الدين الأيوبي، وارهقوا الدولة العباسية في اموالها وجنودها، ولعظم ما ارتكبوه من الجرائم عدهم المؤرخون من الجمعيات الهدامة في التاريخ الاسلامي.[١]

وثورة الزنج التي قادها (على بن محمد واتباعه) التي وقعت في جنوب العراق بين الأدغال والأهوار ولجؤا الى الارهاب والقتل، وهاجموا المدن والقرى، وابتليت بهم الجيوش العباسية، وكلفت الدولة كثيرا من المال والسلاح والرجال، الى أن قضت عليها. ومن إرهابهم أنهم هاجموا البصرة عام (٢٥٧ م) واشعلوا النار فيها وقتلوا سكانها واتخذوا من مسجدها العظيم اصطبلا للحيوات.

ولابن الرومي الشاعر قصيدة مشهورة في تصوير هذه المأساة التي لحقت بالبصرة منها:

لهف نفسي عليك أبتها البصـ ... رة لهفا كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا قبة الاسـ ... لام لهفا يطول منه غرامي
لهف نفسي عليك يافرضة البلـ ... دان لهفا يبقى على الايام
بينما أهلها باحسن حال ... إذرماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع اللي ... ل إذا راح مُدلهم الظلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها ... أين اسواقها ذوات الرخام
أين فلك فيها وفلك اليها ... منشآت في البحر كالاعلام
بدلت تلكم القصور تلالا ... من رماد ومن تراب ركام[٢]

---

[١] تاريخ الاسلام السياسي ٣/٢٠٩ – ٢١٣.
[٢] تاريخ الاسلام السياسي ٣/٢٠٩ – ٢١٣.

واستمرت هذه الفتنة بين سنني (٢٥٥ – ٢٧٠ هـ)

واذا نزلنا قرونا بعد ذلك الى القرن السادس عشر الميلادي، نواجه اسرة ارهابية دموية مروعة، وهي الأسرة الصفوية التي أرادت أن تخرج من طاعة السلطان العثماني بفرض المذهب الشيعي الاثنى عشرى والخروج من المذهب الشافعي الذي كان مذهب الاكثرية الساحقة للايرانيين ليس بالحوار والنقاش العلمي، بل بقتل مئات الألوف من العلماء والناس الذين لم يرضوا بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة ابي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) وجمهور الصحابة الكرام عبر عقود من الزمان.

وهذه المجازر الظالمة تعد من الحوادث الدموية التاريخية الكبرى في تاريخ الاسلام.

وإذا نزلنا الى العصر الحديث، أي سبعينيات القرن العشرين، وجدنا جماعة تسمى نفسها بالسلفية الجهادية، تقوم بتنفيذ مجارز رهيبة بين المصريين وضيوفهم السائحين، وقتل العلماء والسياسيين والاعلامبين وأفراد الشرطة والأمن، وتكفر الدولة والمجتمع، وكل من لا يؤمن، بما هم عليه من العقيدة والآراء العنيفة من ضلال تحريف منظومة القتال. كل ذلك لأنهم يريدون تطبيق الشريعة والخلافة الاسلامية وانشاء دولتها. وبعد استمرار هذا المنهج الدموى إذا بزعيمهم الدكتور الفضل امام يصدر كتب المراجعات، ينقض فيه كل ما يؤمن به من منهج العنف وسفك الدماء وتكفير المجتمع، ويدعو اتباعه في السجون الى التراجع واعلان التوبة، وعدم اتباع الظواهري لأنه رجل جاهل بعلوم الاسلام واسرار الشريعة.

ولم يقتصر سفك الدماء على المصريين، بل تجاوز ذلك إلى أهل الأمان من السياح الذين يأتون الى مصر للاطلاع على آثار حضارتها وتأريخها.

وقد أساء هذا الإرهاب الى الاسلام اساءة بالغة. ولم يعلم هؤلاء أن كل ذلك الترويج والإرهاب وسفك الدماء يبرأ منه دين الاسلام. وقد أصدرت في حينه هيئات

علماء الشريعة فتاوى شرعية بتحريم تلك المناهج الدموية العنيفة ليس في مصر وحدها وانما في العالم الاسلامي كله بل في العالم اجمع.

وبجانب ذلك أصدر الاخوان المسلون عبر عشرين عاما من استمرار ذلك المنهج العنيف، بيانات بحرمة تلك الأعمال وذكروا أن إعادة المجتمع الاسلامي الى الاسلام وتطبيق شريعته لا تتحقق إلا بدعوة عامة شاملة سلمية حكيمة، وان سفك الدماء على الرغم من مخالفته اصول الاسلام، ليس في صالح المسلمين، ولا في صالح مستقبل الدعوة الاسلامية، ولم ينتج منه فيما سيق قديما وحديثا إلا الحزاب والتدمير وازهاق النفوسى البريئة والاساءة الى سمعة الاسلام في العالم.

وعندما وقع الاحتلال السوفيتي في أفغانسات اندفع الاسلاميون من الشباب وتدربوا فيها تدريبا جيدا ثم قاتلوا مع فصائل الجهاد الأفغاني، وأبلوا هناك بلاءحسنا بقيادة الشيخ المجاهد عبدالله عزام (رحمه الله تعالى) وكان اسامة بن لادن يزورهم بالمال والسلاح. فاستطاع أن يشكل من هؤلاء الشباب بعد انسحاب القوات الروسية، منظمة جهادية سميت فيما بعد بالقاعدة، بمنهج العنف وسفك الدماء لمقاومة الحكام المرتبطين بمراكز القوة الطاغوتية العلنية والسرية في الغرب كالولايات المتحدة وحلفائها في الاتحاد الأوربي الذين ينفذون سياساتهم في بلاد المسلمين باذلالهم واضطهادهم.

وظن ابن لادن بتوجيه من أيمن الظواهري الذي التحق به من مصر أن محاربة هؤلاء بالهجوم على مؤسساتهم العسكرية والمدنية عن طريق القتل والتفجير واغتيال السياسيين ورجال الأمن والشرطة والإعلام والسياح وسمى كل ذلك جهاد اسلاميا مبينا.

وكانت نتائج هذا المنهج الدموى العنيف سقوط الأبرياء من الرجال والنساء وحتى الاطفال وتخريب مؤسسات الدولة والشعوب المسلمة، وتشويه سمعة الاسلام في العالم.

وهذه الأعمال غير المنتجة، المخالفة لمنظومة القتال في القرآن والسنة التي رفضها اجماع علماء العالم الاسلامي، جرأت هؤلاء الحكام اكثر فاكثر على شعوبهم، بل أثرت حتى على الجماعات الاسلامية المعتدلة، فوضعت أمامهم عقبات بعد عقبات، لتجفيف منابع حركتها، خشية أ، يتحول شبابهم الى العنف في المستقبل، وقد توجه الكثيرون منهم فعلا الى مجالات العنف نتيجة للاضطهاد الذي وقع عليهم وسدت الابواب أمام عودتهم الى الحياة المدنية الكريمة.

وأما في خارج العالم الاسلامي فلجأ ابن لادن وقاعدته الى تفجير السفارات الأجنبية ومحطات القطارات في لندن وباريس والمانيا واسبانيا، واضخم ما قاموا به من أعمال العنف تفجير البرجين في نيويورك وقتل حوالي اربعة آلاف من الرجال والنساء والاطفال الآمنين من المسيحيين والمسلمين. ولم يكن بينهم يهودي واحد على كثرتهم في البرجين!!؟

وقد انكر علماء العالم الاسلامي ومؤسساته السياسية وأحزابه الاسلامية وغير الاسلامية، هذه الجريمة الكبرى التى ارتكبت بحق هؤلاء المدينين الأمنين، خطط لها اليهود المسيطرون على الحياة في الولايات المتحدة واستطاعوا أن يصنعوا كارثة تاريخية للمسلمين، فجروا عن طريق الحلقات المجهولة جماعة من الشباب الذين أذن لهم اسامة بن لادن باقراره علنا. [1]

فاوقفوا بذلك زحف الاسلام في المجتمع الأمريكى من خلال الدعوة السلمية والمعاملة الحكيمة، والسلوك الأخلاقي، وجروا نهائيا قوة الولايات المتحدة الى المربح الاسرائيلي. وقد اعترف الشهيد المجاهد احمد ياسين، إمام المقاومة الفلسطينية بذلك عندما سئل بعد التفجير مباشرة فاجاب :

---

[1] منعه الملا عمر زعيم الطالبان الذي كان قد بايعه اضطرارا، فقال : يا اسامة لا تفعل ذلك وانا أمنعك وانت بايعتني، لأنك ستقضى علينا وعلى دولتنا. انظر : الجماعات المتطرفة وايران – سعيد بن حازم السويدي ١٥٠ -١٥١، ط١، ١٤٣٦ هـ، ٢٠١٥ م.

(لقد رفضنا هذه الأعمال ونحن لانقرها، لأنها وجهت ضد أبرياء، لا علاقة لهم بسياسات الأنظمة. والاعتداء على الشعوب غير جائز. وهذا الفعل لا يخدم الاسلام والعمل الإسلامي. ومن الواضح أن من قام بهذا هو فى داخل البيت الأمريكى ويعرف خفاياه جيدا، وأن المستفيد من وراء هذه التفجيرات هم الصهاينة، وهم يريدون تحقيق أمرين على الأقل.

الأول ضرب المد الاسلامي المتنامي في أمريكا الذي شكل خطرا على اللوبي الصهيوني هناك.

والثاني جر أمريكا الى مربع الكيان الصهيوني بالكامل للضغوط على العرب لوقف الانتفاضة الفلسطينية وفرض حلول تخدمها وتصف المقاومة بالارهاب.[1]

تصوروا لو أن اسامة بن لادن كان قد انفق المليارات التي كان يمتلكها على نشر الاسلام في أمريكا وانشطته الواسعة المسموح بها لاستطاع المسلمون خلال انتخابين أو ثلاثة انتخابات ان يؤثروا في توجيه السياسة الأمريكية في العالم الاسلامي وحتى في فلسطين.

اكد هذا الأمر لي كثير من عقلاء المسلمين الأمريكيين، وقدموا لى أدلة تفصيلية بذلك، ليس هذا مكان ايرادها.

وأما في العراق، فقد دخل الزرقاوي اليه من ايران بعد الإحتلال. وضبطت رسالة منه الى اسامة بن لادن، تحتوى على أمور خطيرة، منها أنه يكفر الشيعة ويبيح دماءهم لأمرين: أولهما لأنهم مشركون خرجوا عن عقيدة الاسلام، وثانيهما أنهم تعاونوا مع المحتل الأمريكي وأتوابه الى العراق. وبناء على هذه الرسالة بدأ نشاطه هو و جماعته (التوحيد والجهاد) عن طريق تفجير السيارات متوجها ضرباته الى الشيعة عن طريق السيارات المفخخة أمام الجوامع والحسينيات والأسواق والطرقات في النجف

[1] مجلة المجتمع الكوتية عدد (٤٧) سنة ٣٢.

وكربلاء والحلة وبغداد، فقتل نتيجة لذلك خلق كثير من الرجال والنساء والاطفال وزاد على ذلك القتل على الهوية بين النجف وكربلاء وبغداد، ، وسمى ذلك الطريق بطريق الموت.

ولم يتوجه الى الشيعة فحسب، وانما حكم بالردة على كل من دخل الى العملية السياسية أو دعا اليها من أهل السنة ولو كان معارضا فنفذ فيهم ما نفذ في الشيعة من القتل الجماعي والفردي في الأنبار وديالى وصلاح الدين والموصل وبغداد وكركوك وأربيل ومناطق متنوعة أخرى.

وخص قيادات وكوادر الحزب الاسلامي العراقي وغيرهم من شيوخ العشائر والأئمة والخطباء والعلماء بالقتل، ووجه شبابا بريئين جاؤوا الى العراق بنية الجهاد الى تفجير أنفسهم بين شباب أهل السنة الذين كانوا يريدون أن يتطوعوا في الجيش والقوى الأمنية كي لا تفقد تلك القوات توازنها، فتتسلط طائفة على طائفة أخرى كما حصل ذلك فيما بعد.

وتوجه الزرقاوي وجماعته بجانب ذلك الى المراسلين والصحفيين الأجانب فاسروهم، وطلبوا من حكوماتهم إما الخروج من العراق أو دفع الفدية عنهم، فلما امتنعوا ذبوحهم وصوروا عملية الذبح، وانتشرت تلك الصور في فضائيات العالم، فاساؤوا بذلك الى الاسلام اساءة بالغة واظهروه أمام العالم أنه دين ارهابي متطرف وحشي لا يعرف الرحمة.

وقد استنكر علماء الاسلام كافة هذه الأعمال اللاشرعية وبينوا مخالفتها الأكيدة بالأدلة والبراهين لأصول الشريعة ومقاصدها ومالات تنفيذ أحكامها.[1]

وبجانب ذلك كان تطبيق هذا المنهج الدموي اساءة كبيرة للمقاومة الشرعية التي لم تلطخ يدها بدماء العراقيين أو الأجانب الآمنين، لأن المحتلين ومن جاؤوا بهم الى

[1] راجع كتابي (قواعد التكفير عند أهل السنة والجماعة)، ط: دال الفرقان- عمان- ٢٠٠٩.

العراق وأعداء الأمة في الخارج حسبوا كل ذلك على المقاومة العراقية الشريفة البريئة، مما أدى الى عدها إرهابا وليس مقاومة.

ومصادر هذه الجماعات التي تؤمن بمنهج الصراع الدموى، ووسيلة الترويج والقتل والذبح والتفجير كتب عدة، قرأت منها كتابين، كتابا كبيرا عنوانه (مسائل في فقه الجهاد) من اعداد وجمع عبدالرحمن العلي (ابو عبدالله المهاجر) عرض فيه لفقه وآراء جمع من فقهاء المذاهب الأربعة فيما يتعلق بشؤون القتال من جميع جوانبه حيث كان الصراع يشتد في القرون الأولى بين الدول الاسلامية والدول الكافرة أو المشركة أو المجوسية أو الكتابية المحرفة، ونظروا له باشد الآراء الفقهية التى وردت للعمل بها في ذلك الصراع بالاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث المنفردة دون النظر في المنظومات القرآنية والحديثية المتكاملة التي عرضناها من قبل، سواء فيهما أم في المنظومات الحاكمة عليها.

انظر مثلا الى الشوكانى وهو من الفقهاء اليمنيين المتأخرين ماذا يقول (فالمشرك سواء حارب أم لم يحارب مباح الدم مادام مشركا)[1].

وعلق الكاتب على هذا الموضوع فقال :

(واصناف الكفار التي اختلف الأئمة والفقهاء حول المنع من القصد الى قتلها هي الأصناف التي سيق الحديث عنها من النساء والصبيان والشيوخ الفانين والزمني والرهبان والعسفاء لاغير كما تنطق بذلك نصوص).

أما ما عدا ذلك من اصناف الكفار، فلم يختلف أحد من أهل الاسلام[2] في جواز القصد الى قتلهم وان لم يقاتلوا، وكانوا من ضمن الجيش الكفار المحاربين أم لا، إذ

---

[1] مسائل فقه الجهاد، ص ١٤١.

[2] وهو كلام غير صحيح كما سيأتي.

موجب القتل عند الجمهور هو إطاقة القتال لا مباشرته أو حتى الاستعداد والتهيؤ له، فكل من كان مطيقا للقتال، فهو من أهل المقاتلة والممانعة وإن جلس في بيته.[١]

ويقول قبل ذلك :

(ولذلك كله انعقد اجماع أهل الاسلام كافة على أن دار الكفر دار إباحة للمسلمين، فاذا دخلوها بغير أمان فلهم التعرض لدماء الكفار واموالهم بما شاؤا).

وهذا الكلام غير صحيح.

فاين إذن نعمل بقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر).

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) ﴾[٢].

واين ذلك الاجماع من قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) ﴾[٣].[٤]

والرسول ﷺ في خيانة بني قريضة ترك الذين ثبت أنهم لم يرضوا بنقض الحلف معه ﷺ.

هذا الكتاب الذي تعب فيه صاحبه في تتبع آراء الفقهاء السابقين فيما يريد أن يصل اليه من مقررات وآراء فقهية، لى عليه ملاحظات آتية :

---

[١] من مسائل الفقه ١٤١.
[٢] (الممتحنة: ٨ - ٩).
[٣] (النساء: ٩٠).
[٤] راجع جميع الآيات التي

١- لا يستعين برأى أي إمام مجتهد يخالف رأيه فيما يحاول أن يقرره، فمثلا لا ينقل رأى إمام السلفية شيخ الاسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى)، الذي قرره في كتاب (قاعدة مختصرة في قتال الكفار) و (منهاج السنة النبوية) و (الجواب الصحيح في من بدل دين المسيح) و (الصارم المسلول) و (السياسة الشرعية) و (الفتاوى) والذي يذهب فيها الى أن الأصل الذي ذكره (وهو القتال لأجل الحرب وليس لاجل الكفر، هو الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهو مقتضى الاعتبار)

ويستدل بقوله تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) و حديث (ما كانت هذه لمقاتلة) ومشروعية المن والفداء وعدم قتال من هادنه واقرار الكفار على كفرهم ببذل الجزية والتضييق في قتل النفس البشرية)[1].

وأكد شيخ الاسلام ان المنهج الذي التزمه الرسول ﷺ، أنه كان يسالم من سالمه ويحارب من يحاربه وأنه لم يبدأ بقتال قط إلا أن يبدأ. ويقول : هذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازى متفقة على ذلك، وما قرره ابن تيمية اكده تلميذه العلامة ابن القيم في كتاب (هداية الحيارى).

٢- لم يستعن باجتهاد أى عالم مجتهد معاصر، مهما كانت درجته في العلم والفتوى والإخلاص والإمامة.

كالإمام محمد عبده والأمام محمد رشيد رضا والعلامة الشيخ حسنين مخلوف والعلامة الشيخ محمود شلتوت والعلامة الشيخ محمد أبي زهرة والعلامة الشيخ مصطفى الزرقا والعلامة الشيخ على الخفيف والعلامة الشيخ مصطفى السباعي والعلامة الشيخ محمد عبدالله دراز والعلامة الشيخ عبدالكريم زيدان والعلامة الشيخ القرضاوي والعلامة الشيخ ابي الأعلى المودودى والعلامة الإمام سعيد النورسى

---

[1] قاعدة مختصرة في قتال الكفار، ص٨٧ وما بعدها، نقلا عن فقه الجهاد للقرضاوي، ح٢ / ٣٩٦ – ٤٠٣. وكذلك ابن القيم في كتاب (هداية الحيارى).

والعلامة الإمام الطاهر بن عاشور وابنه العلامة الشيخ الفاضل بن عاشور والعلامة الشيخ علال ا لفاسى.

والعلامة الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود والعلامة الشيخ مصطفى الزلمي، وعشرات آخرين ممن لا تحضرني اسماؤهم.

هؤلاء وغيرهم من فقهاء العالم الاسلامي في العصر الحديث لا يذكرهم وانما يعرض عنهم جميعا أو يسمهم علماء السوء، لانهم لم يكونوا سلفيين حنبليين. وهذا واضح من استعانته بعدد من علماء السعودية المقلدين من حفظة النصوص، وليسوا فقهاء إلا ما يختارونه من مذهب الإمام احمد بن حنبل.

وأما الأئمة والفقهاء الذين عاشوا في العصر الحديث وعالجوا في دراساتهم الفقهية العميقة وفتاواهم المنشورة كل ما يتعلق بقضايا الحرب والسلام من العالم المعاصر، فلا يأخذ منهم وجميعهم كانوا راسخين في علم الواجب أى علوم الشريعة وعلم الواقع، وهو ما يدور في زمانهم في هذه الدنيا العريضة من تغيرات هائلة.

ولم يكونوا أقل علما في معرفة النصوص، اصولها وقواعدها ومقاصدها ومآلات تنزيل الأحكام فيما من أئمة القرون الأولى، بل ظهرت لهم من اسرار الشريعة في هذا الزمان ما لم يتطرق اليها السابقون، وعيشهم في ظروف زمانهم وانكشافهم لقواعد الحياة التي لم تكن قد انكشفت لهم.

٣- إنه يناصر بقوة، الرأى الذي يقول بان الفتوحات الاسلامية وجهت لمقاتلة الكافرين والمشركين، ولم توجه فقط لمقاتلة الطواغيت والظالمين والمجرمين من حكام فارس و الروم وغيرهم. بينما منظومات آيات القتال، والحاكمة عليها تقطع بان القتال لم يوجه الى الانسان الكافر والمشرك المسالمين، فضلا عن من كان له عهد أو أمان. وتواريخ الفتوحات الاسلامية تشهد بذلك.

فالصحابة الكرام وتابعوهم بعد انهاء القتال مع الفرس والروم لم يدخلوا مدينة أو قرية فقتلوا أهلها المشركين أو الكفار أو المجوس في بيوتهم والذين استسلموا اليهم ولم يقاتلوهم ودخلوا جماعيا في الاسلام، كان موقفهم نتيجة لايمان وسلوك الفاتحين.

٤- إن مؤلف الكتاب المذكور اجاد في نقل الفقه القديم وادلة فقهائه، فيما كان يريد أن يصل اليه من إقرار المذهب الذي يقول سأتعامل بالعنف ضد الكافرين والمشركين والمجوس من أجل اقامة دولة الاسلام، ولكنه مع الاسف كان ناقلا ولم يكن فقيها معاصرا مجتهدا يجمع بين الرسوخ في علوم الشريعة والرسوخ في علم الواقع الذي تغير كثيرا عن صراعات العالم القديم.

هذا المنهج الجامع الذي أقره ابن القيم (رحمه الله) والمبني على تتبع مقاصد الشريعة لا يمكن أن يتحقق باجبار اصحاب العقائد المخالفة على الدخول في عقيدة الاسلام , وانما يتحقق، بمعرفة مقاصد الشريعة واستخلاصها من ظواهر الفاظها المتجمعة في كثير من الجزئيات في كلية واحدة.

وهنا انقل بعض ما قلته في كتابي (من البلاغ المبين الى السياسة الشرعية) :

(لم يمر على المسلمين عصر يحتاجون فيه الى العمل بالمقاصد الشرعية كالعصر الذي نمر به، لمواجهة التعيير الهائل الذي استجد فيه من المشكلات المتراكمة والمواقف العويصة المكتفة الفاعله فيه، وهي من القوة الدافعة والتأثير الشامل الذي لم يعد يفيد معها الوقوف على الالفاظ فحسب، واستنباط الجزئيات الدقيقة المبعثرة غير المرابطة التي لا تشكل كليات شاملة، تخرج مجتمعاتنا من السقوط الحضاري الذي وقعت فيه.

إن كل مفكر أو فقيه يتعمق في دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشرفية لابد أن ينتهى الى ان المقاصد التي وراء نصوصها وسياقاتها ومنظوماتها هي القانون الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، في منظومة الشريعة الاسلامية التي تشكل شبكة متوازنة

لقيادة سيرورة الحياة البشرية، وهي المقصد الاساس لإرسال الدين الاسلامي الخاتم لصياغة ظروف الحياة المتغيرة والجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة.

إن الاشتغال بالجزئيات المبعثرة غير المترابطة في عملية الاستنباط الفقهي حال بين الفقهاء المذهبين في العصور الأخيرة وبين التركير على اكتشاف عللها أو حكمها أو مقاصدها النايعة من تطور منظومتها التشريعية الداخلية، وليس من الضعوطات الخارجية عليها لتسييرها حسب مقاصد وغايات المنظومات الحضارية الأخرى، أقصد الأفكار العلمانية المعاصرة التي تعتمد على العمل بالمقاصد الموهومة غير المنضيطة لتعطيل النصوص وتجاوزها والغاء مسوغات وجودها.

والمنهج الظاهري التجزيئي المبعثر الذي اهمل النظر فيما وراء نصوص البلاغ المبين من العلل والحكمة والمقاصد النهائية كان من أخطر حلقات تشوية معالم شريعتنا السمحاء والحيلولة دون تأثيرها على الحياة البشرية لاسيما في العصر الحديث، حين لم تنزل نصوص الوحي على النوازل البشرية المتغيرة الخطيرة.

والغريب كيف لم يدرك أصحاب المنهج التجزيئ أن المقاصد التي تفرزها منظومة الوحى الالهى كانت وراء اجتهادات الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين وجمع من صحابته المقربين (رضي الله تعالى عنهم).

وأغرب من ذلك أن يضعف هذا الدور تدريجا بعد عصر أئمة المذاهب الفقهية عندما استسلم العقل الفقهي التشريعي المسلم الى التقليد والجمود على أقوال السابقين والتعويض عن منهجهم المقاصدي، بالمنهج التجزيئى في الموسوعات الفقهية المتنوعة وحواشيها وتعليقاتها المملة. [1]

٥- إنه تبعا لأقوال الفقهاء قديما يقسم العالم الى دار الاسلام ودار الحرب، ولم يلتفت الى معالجات الأئمة المعاصرين الذين أدركوا أن الزمن قد تطور كثيرا، وتحولت

---

[1] ص ١٠٣ – ١٠٥.

الكرة الأرضية الى دار واحدة، فكيف نميز اليوم دار الاسلام من دار الكفر من خلال الفقه القديم الذي لايؤمن الكاتب بغيره، وفي ضوء مصطلحات ذلك الفقه لايوجد أصلا دار الاسلام، لأن أحكام الشريعة، عقيدة وشريعة وسلوكا غير مطبقة تماما، بينما دار الاسلام موجودة اليوم في رأى المجتهدين المعاصرين، ودار الكفر لم تعد دارا واحدة معروفة الحدود. فالمسلمون يكونون مكونا من مكوناته، وهم يقومون بفرائض دينهم، والدعوة اليه بين الأديان الأخرى مكفولة قانونا بحرية كاملة، ولهم حقوقهم القانونية في مساجدهم ومدارسهم ومؤسساتهم، والمسلمون الذين يضطهدون في بلادهم يذهبون الى تلك البلدان كي يحموا أنفسهم ويثبتوا ذواتهم متمتعين بحريتهم الدينية والانسانية.

ومن جهةأخرى فعلماؤنا اليوم مازالوا يسمون دارنا بدار الاسلام كالسابق، لأن جغرافيتها التاريخية جغرافية اسلامية معروفة.

والمقيمون فيها في اكثريتهم الساحقة مسلمون أبا عن جد، كابرا عن كابر. وهم مع حكامهم العادلين منهم والظالمين، يشهدون (أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) ودساتيرهم تقول بان الدول هذه اسلامية وتثبتها. ومصادر دساتيرها هو الشريعة الاسلامية، وكثير من أحكام الشريعة مطبقة، لاسيما في قوانين الاسرة والأحوال الشخصية، والمساجد والمؤسسات الثقافية الاسلامية مازالت قائمة تؤدي واجبهاتها الدينية.

غير أنه نتيجة لظروف تاريخية قاهرة في العصور الأخيرة توجد نواقص كثيرة يمكن أن تعالج تدريجيا، وشأن المجتمع بالقرب والبعد من الاسلام شأن الأفراد، فهنالك مسلم مؤمن وهنالك مسلم فاسق، وهنالك مسلم ظالم لنفسه، ولا يخرجون جميعا من الاسلام، لأنهم يشهدون شهادة الإسلام، ولكن يخالفون بعض أحكام الاسلام ليس جحودا، وجميعهم مصطفون من قبل خالقهم بنص القرآن الكريم، لأنهم يقولون (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

ألم يقل سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].[2]

وأما الدار الاخرى التي كانت تسمي بدار الكفر قديما، فاليوم تسمى بدار الدعوة، لأن الحرية مكفولة للجميع، والكفر ليس مفروضا على أحد، والمسلمون لا يجدون حريتهم الدينية إلا هناك.

وتنفيذ لمانقله صاحب (من مسائل الفقه) دار الاسلام القديم هو دار الكفر اليوم، لان شريعة الاسلام عن مطبقة فيها.

ودار الكفر مازالت دار الكفر، إذن الداران هما دارالتوحش القديم حسب منظور رسالة تنفيذ الكتاب الاول التي سميت (ادارة التوحش).

فارجاع الدار الأولى الى دار الاسلام لا يمكن أن يتحقق بالدعوة السلمية كدعوة الاخوان المسلمين وغيرها من الدعوات التي تدور في فلكها. وانما يتحقق بالقوة والعنف والترويع والدم في مجموعات صغيرة هنا وهناك، حتى تجتمع في ثورة عنيفة دموية عارمة للسيطرة النهائية على مجتمع من المجتمعات الذي كان اسلاميا تم تحويله الى مجتمع اسلامي صحيح، تطبق فيه الشريعة الاسلامية كاملة غير منقوصة، ولكن باتجاه واحد فحسب، هو الإتجاه اللفظي الظاهري.

---

[1] (فاطر: ٣١ – ٣٢).

[2] أورثنا الكتاب القرآن. أى أعطيناه. وعبادنا أي أمة محمد ﷺ، لانه اصطفاهم على سائر الأمم (ظالم لنفسه) من تقصير في العمل بالكتاب وأسراف على نفسه أي يرتكب المعاصي. و (المقتصد) هو الذي يحافظ على الفرائض ولايرتكب الكبائر والسابقون في عمل الخيرات انظر القرطبي ج٧، ص ٣٠٢، أوضح المعاني في تهذيب روح المعاني ج٤ ص٢٦٤.

وأما دار الكفر، دار الطغاة الذين يحاربون الاسلام وأهله ويسندون الحكام الطغاة الذين كانوا مسلمين، على شعوبهم ويضطهدون ويقتلون دعاة الاسلام، ويطبقون فيه أنظمة الجاهلية الكافرة التي سلمت فلسطين الى اليهود، هؤلاء علينا أن ننتقم منهم حكاما وشعوبا، لأنهم مسؤولون جميعا عن مأساتنا، وليس هنالك طريق آخر غير هذا الطريق.[1] أي طريق العنف.

هكذا –عند التنفيذ– ومنذ ثلاثة عقود طبقوا نظام العنف الدموى على مجتمعات التوحش، لعلهم يعيدون المجتمعات الجاهلية عندنا وعند غيرنا الى الاسلام.

ولو راجعنا منظومة آيات القتال في القرآن الكريم وكيفية أنزالها الى واقع الحياة لتكوين أمة مسلمة ودولة مسلمة، من قبل الرسول الاعظم ﷺ وصحابته (رضوان الله تعالى عليهم) لوجدنا أنهم لم يسلكوا قط مسلك الظلم والطغيان وفرض العقيدة والشريعة لا في المجتمع المكي ولا في المجتمع المدني، بل أصدر الرسول وثيقة المدينة التي حددت حقوق وواجبات المسلمين واليهود والمشركين، وطبقها على الجميع بسلمية آمنة، وهو الذي انتج نظرية (لنا ما لهم وعلينا ما عليهم).

أى أن الرسول وهو الرحمة المهداة لم يبدأ بالذبح والقتل وفرض الدين بالقوة، وانما أرسل الصحابي الجليل (مصعب بن عمير) رضي الله عنه، داعية القرآن، فهدى الله تعالى على يديه عصبة مؤمنة جاؤوا الى مكة فبايعوا النبي ﷺ على إقامة المجتمع المسلم فهاجر الرسول اليهم وكونوا دولة الاسلام دون حرب مع اليهود والمشركين من خلال الرحمة وتحقيق كرامة الانسان وتثبيت حقوقه ونقله من عبادة العباد الى العبادة ربّ العباد.

وقد يسأل سائل فيقول :

ألم يدخل الرسول في الحروب ؟ ألم يسفك الدماء هو واصحابه ؟

أجيب :

---

[1] ادارة التوحش، ص ٧٢، لا يوجد تاريخ ومكان الطبع.

لم يدخل الرسول ﷺ في مواجهة قتالية إلا بعد الأعتداء عليه وعلى أصحابه أو نقض عهده، سواء مع القبائل اليهودية المعروفة في المدينة وخيبر أم مع العشائر العربية البعيدة أو مع العربية المحيطة به أم مع الدول الطاغوتية المستعبدة لشعوبها المتهيئة للهجوم عليه، لأن الجميع كانوا يدركون جدا أن انتشار شهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يعني عندهم القضاء على مصالحهم وطغيانهم واستعبادهم لشعوبهم وظلمهم لعبيدهم. وقد فصلنا القول في ذلك ولا نعيد ماقلناه سابقا.

ومجمل القول أن حروب الرسول كانت حروب دفع ولم تكن قط حروب هجوم حقيقي ابتداء، حتى في حروبه الطلبية كان مدافعا عن مستقبل أمته ومستقبل الشعوب التي كانت ترزح تحت مطحنة طغيان الفراعنة والنماردة والأكاسرة والأباطرة تلك الشعوب كانت تنتظر الرحمة التي غمرت حياة العرب في الجزيرة العربية.

وأنا على يقين لو قدر لرسول الله ﷺ أن ينشر دعوته دون مقاومة ولا إعاقة من أحد ولا خطر الملوك وشيوخ القبائل، لما كان حريصا على سفك دم الانسان الضائع التائه البعيد عن خالقه.

أولم يقل سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[1].

ولكن هذه الدنيا كتب الله عليها في إرادته الكونية ألا تخلو الى يوم القيامة من الظالمين الطغاة واصحاب المصالح والشهوات الذين يقفون أمام كل دعوة ترجع حق الإنسان المظلوم المقهور المستلب.

ألم يقل سبحانه : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ

[1] (الأنبياء: ١٠٧).

عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

فاذا كان هذا سلوك الرسول ﷺ مع الأعداء قبل أن يهجموا عليه، فكيف نعالج نظام التوحش بتوحش مثله كما يقولون. أى بالذبح والعنف وتفجير المنشآت والأسواق وقتل رجال الأمن والشرطة والإعلام وقتل السياح الذين يدخلون البلاد الاسلامية بامان حكوماتها.

فاذا فرضنا أن الحكومات مخطئة في ادخالهم فما ذنبهم هم ؟

ثم اذا درسنا نتائج ما فعلوا من العنف الدموى في داخل المجتمع الاسلامي، توضح لنا تماما أنهم لم يتقدموا خطوة واحدة إلى الأمام فيما يظنون أنهم بهذا المنهج يبنون مجتمعا اسلاميا ودولة اسلامية، بل إنهم اعاقوا حتى دعوة المسلمين بعملهم ذلك.

إن علماء الاسلام مجمعون على أن القتال لا يوجه تحت أى ظرف الى المجتمع الاسلامي، لانه حينئذ يهدم ولايبني، وينتهى الى الفوضى وفقدان الأمن والأمان.[2]

لقد اثبت التاريخ أن الثورات الاسلامية العنيفة التي وجهت الى الحكام لم تعد على المجتمعات الاسلامية إلا بالهدم والتخريب والتمزيق وتقوية الحكام. فكيف اذا وجهت الى الشعوب مع الحكام، على اساس أن السكل يكونون مجتمعا جاهليا؟!!

٦- ثم انهم لم يفكروا في مآلات تنفيذ ذلك الحكم، وهو من المقاصد الكبرى في الشريعة الاسلامية، وهو أن العالم غدا بلدا واحدا بل غرفة من البيت، والبشرية جميعا ترى على مئات الفضائيات آثار الدم والاشلاء المنشورة على أرض الهجمات، فيأخذون نظرة مروعة مقززة خاطئة عن ديننا النظيف، فيعطون الف حجة بيد القس

---

[1] (القصص: ٤ – ٦).

[2] صيقل الاسلام – المحاكمات ٢٧ –الملاحق- ملحق أمير داغ.

والرهبان والأحبار وأهل البدعة والضلالة من المسلمين أن يهاجموا الاسلام في عقائده وشرائعه ونظامه الأخلاقي.

وسيفتحون أوسع المجالات أمام المخابرات الاجنبية وكهوف التآمرالغربي على أمتنا فيقومون بتفجيرات وقتول، ويضاف كل ذك اعلاميا اليهم ثم الى الاسلام. ثم الى المسلمين.

وبذلك جعلوا الاسلام عالميا، دينا إرهابيا متوحشا، بدلا أن نقدم أروع الأمثلة للعالم أن اسلامنا هو دين السلام والحق والتوحيد الخالص والحرية، واننا مظلمون ولنا ظالمين.

إن الجهاد في المجتمع الاسلامي لا يكون إلا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر بشروطه.

والدعوة الى الله تعالى بالعلم والمعرفة والأخلاق العالية والوعظ والإرشاد، عبر المنظمات الثقافية والجمعيات الاسلامية والضغط على السلطات الظالمة بتكوين الاحزاب السياسية ذات المرجعية الشرعية واقامة المظاهرات الحاشدة السلمية، وعن طريق الفضائيات الاعلامية والصحافة اليومية وغيرها... وغيرها.

هذا في المجتمعات الاسلامية، وأما في البلاد الأجنبية التي تعطيهم أمانا في دخول بلادها فلا يجوز لهم أن يقوموا باعمال دموية وسفك دماء بريئة فيها، فدستور الاسلام في المواجهة التي تفرض على المسلمين، أن نقاتلهم على أرض المعركة كما يقاتلوننا، وأن ندمر كلما يستعينون به في حربنا كاليهود في فلسطين والمحتلين لبلادنا بعد دراسات مآلات مانقدم عليه حتى لاتكون المفسدة اكبر من المصلحة الصغيرة التي نحققها.

وهذا المنهج الرصين الذي طبقه الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم في كل ما واجهوه من المعارك الكبيرة والصغيرة، كما عرضنا طرفا منها من قبل، تطبيقا لمنظومة آيات القتال، الذين كانوا هم أعرف بها منا.

ونستطيع أن نأخذ العالم الاسلامي بلدا بلدا، حتى لا يكون كلامنا عاما، لكي نثبت أنهم في كل بلد اسلامي طبقوا منهجهم الدموى وضحوا بمئات من دماء شبابهم، وقووا فيه العلمانية اكثر وأخروا قضية اعادة المسلمين الى اسلامهم. وتطبيق شريعة دينهم.فهذه سوريا والعراق ومصر والجزائر وتونس وليبيا والمغرب واليمن والسعودية والأردن واندونيسيا على سبيل الأمثلة وليس الحصر.

أما في سوريا فاول دخولهم قاتلوا المجاهدين الحقيقين من الجيش السورى الحر والفصائل الأخرى الذين اقتربوا من قلاع الكفر النصيرى وكانوا باذن الله قريبين من النصر ينتظرون إنتهاء طغيان هذه الأسرة الفاجرة التي حكمت الشعب السوري عقودا من الزمان بالحديد والنار.

وبجانب ذلك لم يتصدوا تصديا حقيقيا لجنود بشار والميلشيات الطائفية إلا لماما لذر الرماد في العيون، وكانت الطائرات النصيرية السورية تمر على مناطقهم ولا تقاتلهم في بداية الأمر لتسهيل انتشارهم، حتى يقول الطاغية بشار أن الذين يقاتلون في سوريا ليسوا إلا ارهابيو (داعش) ولا توجد مقاومة سورية حقيقية.

واليوم تقاتل طائرات روسيا فتدمر المدن على رؤوس أهلها فتقتل مئات الاطفال والنساء والشيوخ يوميا بدعوى وجود داعش و الأرهاب. واستطاعت الدعاية الاسرائيلية والروسية والسورية وحتى الأمريكية والإيرانية أن تقنع دول الغرب وعددا من الدول العربية العميلة أنه لاتوجد مقاومة حقيقية في سوريا.

وهكذا تأخر النصر واستشهد حوالى مليون من ابناء الشعب السوري المظلوم. وهجرت اكثر من عشرة ملايين الى البلدان المحيطة بسوريا وحتى بعض البلاد الغربية.

وفي العراق دخلوا المناطق السنية وحدها ولم يتجاوزوها قيد شعرة الى المناطق الشيعية وفرضوا نظامهم العنيف عليها، وخرج أعزة أهلها من العوائل الكريمة واساتذة الجامعات وخطباء المساجد وكثير من أهل الوظائف الامنية والمدنية، مهجرين انتشروا بالملايين في محافظة كركوك والسليمانية وأربيل في مدن من الخيم تفتقر الى الخدمات الأساسية في الشتاء والصيف، زيادة على تنفيذ الترويج والقتل لأعضاء في الحزب الاسلامي العراقي وابناء العشائر ومن بقاء افراد الشرطة وكل من يشكون فيهم، وصادروا بيوت من خرجوا وكتبوا عليها ملك الدولة الاسلامية.

ولما استقر لهم الأمر بعد أن انسحب من الموصل اكثر من ستين الفا من الجيش والشرطة الاتحادية والمحلية وقوات مكافحة الأرهاب، ولم يطلقوا طلقة واجدة تجاههم وتركوا لهم سياراتهم ودباباتهم ومصفحاتهم ومدافعهم ومعسكراتهم بما فيها من ذخائر بأوامر أتتهم من جهة ما سيكشف عنها التاريخ، وخلال اكثر من السنتين اللتين مرت الى الآن نفذوا احكم الأعدام باكثر من اربعة الآف واغتصبوا بيوت عشرات الالوف من العوائل هربوا من ترويعهم وعنفهم والخوف منهم، الى محافظة اربيل ودهوك و زاخو القريبة من الموصل. زيادة على ذلك أنهم أخرجوا المسيحيين من مدينة الموصل بعد ان صادروا بيوتهم واموالهم حتى نزعوا حلقات الذهب من أصابع نسائهم أما (الايزيدلون) وقد عدوهم مشركين فقتلوا كثيرا من رجالهم وسبوا جمعا من نسائهم، فاضطروا أن يلجأوا الى الجبال والمدن القريبة في وضع مأساوى، وهؤلاء كما هو معلوم كانوا تاريخيا من أهل حكم الدول الاسلامية في ستر وأمان ووئام، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وقبل الدخول في الموصل كانوا دخلوا في محافظة الانبار، ومدنها كالرمادي والفلوجة وهيت والحديثة وعانه وراوة والقائم وقتلوا فيها من أرادوا قتله، وشردوا معظم سكانها، وتوجه الى بغداد من توجه، وعشرات الوف أخرى من العوائل الى مدن كردستان، أى أنهم بدخولهم في المناطق السنية جميعا شردوا اكثر من ثلاثة ملايين.

وعند محاولة استعادتها من قبل القوات العراقية والبشمركة الكردية والطيران الامريكي، هدمت معظم أجزا هذه المدن، وقتل الالوف من أفراد العوائل الباقية فيها. والمهجرون لم يستطيعوا الى الآن من الرجوع الى مدنهم وقراهم.[1] لأنها مهدمة بل فيها احياء ممسوحة على الأرض.

وأنا اكتب هذه الصفحات، ومنذ حوالي اربعة اشهر هاجم الجيش العراقي وقوات البيشمركة الكردية والحشد العربي الموصلي والحشد الشعبي الشيعى الموصل واطرافها من البلدات الكثيرة، تساعدهم من الجو قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، تدمر اماكن وجودهم من داخل مدينة الموصل، وفيها مليون ونصف من رجال ونساء واطفال أهلها، ويقاتل الشباب البريؤن المغرر بهم من تنظيم الدولة من شارع الى شارع، وتسقط الضحايا من الجانبين وتهدم العمارات على رؤوس أهلها، وتدمر البنية التحية للمدينة التاريخية، وخرجت الى الآن مئات الالوف من الرجال والنساء من القرى المحيطة بالموصل، وبعض الاحياء المحررة، الى خارج مناطق القتال في أوضاع مأساوية كارثية، يفرشون الأرض ويلتحفون السماء، والمؤمل في الاسابيع أو الشهور التي يستمر فيها القتال أن يخرج مئات اخرون من الالوف. ويدفن أو يقتل في داخل الموصل الوف آخرون، من الرجال والنساء والأطفال.

وهكذا دمرت المناطق السنية في العراق تدميرا شبه كامل، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

وأما في الجزائر فلقد استغرقت هجمات الجماعات العنيفة التي تؤمن بمذهب القتل والتهجير عشر سنوات، قتل فيها حسب الإحصاءات الرسمية اكثر من مائه الف مسلم دون أية فائدة لقضية الاسلام والمسلمين.

---

[1] يوم ٢٠١٧/٣/٢١، وملايين الناس في العالم يرون هذه الكارثة التاريخية الكبرى على الفضائيات ليل نهار.

وفي تونس، ولاسيما بعد ثورة الشعب التونس، هاجمت الجماعات المتشددة المعسكرات وفجرت المتاحف، فمات في كل مرة عشرات من قوات الأمن والمدنيين والسياح الآمنين.

وفي ليبيا دخلوا اليها بعد أن أطاح الشعب الليبي المجاهد بالطاغية معمر القذافي فبدؤا بذبح النصارى المصريين والفصائل الأخرى من الاسلاميين المسالمين الوسطين وغيرهم، وفتحوا المجال لعملاء الصليبية العالمية الغربية أن يدخلوا في معمعة الفوض للسيطرة اللادينية على ليبيا.

ولو كان هؤلاء صادقين مع الثوار الحقيقين من الاخوان وغيرهم لبنوا جبهة قوية لبناء دولة اسلامية موحدة قوية وسطية معتدلة.

وأما في اليمن فمن سنوات نقلوا قوتهم هناك، وهاجموا الجيش اليمني ولاسيما بعد أن سيطر الحوثيون الطائيفيون المرتبطون بإيران في المنطقة، متعاونين مع الطاغية على عبدالله صالح في احتلال العاصمة صنعاء وانشاء دولة طائفية تمزق الشعب اليمني الفقير، وتدمر مستقبله.

وفي جنوب شرقي آسيا، ولاسيما أندونيسيا قاموا باعمال تفجيرية هائلة، فقتل مئات الناس من الرجال والنساء والاطفال ولم يفلحوا في أى مكان من العالم الاسلامي أن يقيموا دولة اسلامية حقيقية راحمة، فيطبقوا مقومات الشريعة الاسلامية لتحقيق مصالح العباد في تنمية اجتماعية حضارية شاملة حتى تكون نموذجا حيا في العصر الحديث أمام العالم كله.

ويتساءل اليوم العقلاء والحكماء من السياسيين والمفكريين والعسكريين وغيرهم في العالم الاسلامي كله، لاسيما في سوريه المهدمة والمناطق السنية العراقية المحطمة.

كيف وقع كل هذا ؟

ومن يقف وراء كل مايحدث ؟ من دول المنطقة ودول الاستكبار العالمي؟

جماعة صغيرة تهاجم سورية ثم العراق. فتنسحب أمامها فرق الجيش وقوات الأمن والشرطة. تاركة لهم اسلحتهم الثقيلة والمتوسط والخفيفة ومعسكراتها ومافيها من سيارات وأجهزة وعتاد، دون اطلاق طلقة واحدة فيدخلون في المدن، يخربونها ويشردون اهلها. أين نسجت هذه المؤامرة الكبيرة الداخلية والاقليمية والدولية لسحق أهل السنة ومناطقها ومدنها في سوريا والعراق.

لابد للمؤرخين والباحثين المنصفين أن يدرسوا هذه الظاهرة الفريدة من التاريخ الحديث والمعاصر، ليصلوا بالضبط الى تحديد الجهة التي صنعت هذه الكارثة. ولكن بالادلة والوثائق؟

ونحن في سبيل الوصول الى الحقيقة لمنتظرون.

واذا سألني باحث فقال : هل تظن أن اسامة بن لادن الذي صنع لنا كل هذه الكوارث كان عميلا لامريكا، لانه كان يتعامل مع مخابراتهم لاسناد المقاومة الأفغانية للاحتلال السوفيتي.

أقول : لا اظن ذلك، ولكنه أنحرف عن طريق الحق، ومنهج الشريعة العادلة. كان مهندسا ذا ثقافة اسلامية عامة ولم يكن عالما على اطلاع جيد بالشريعة ودراسة اصولها وقواعدها ومقاصدها ومآلات تنفيذ الاحكام فيها.

لقد احاط به شياطين الأنس واخترقت المخابرات المركزية من حوله فزينوا له الطريق الذي مشى فيه، بطرق جهنمية. هم اساتذة وخبراء في معرفة مسالكها، ونتائج الأفعال الإرهابية فيها.

إنهم تركوه في بداية الأمر ليمشي في منهجه، لأنه المنهج الذي يشوه معالم الاسلام الذي كان يزحف في المجتمعات، بكل ما لها من روعة وجمال وكمال.

واليهودية العالمية وأجنحتها السرية والعلنية كانت تريد أن يتغلل منهج القتل في العالم باسم الاسلام والمسلمين، لكي يناصرها الغرب بدولها جميعا من أجل بناء دولة اسرائيل الكبرى في مركز العالم الاسلامي فلسطين.

لماذا أقول لم يكن عميلا، وانما كان مسلما متدينا غير واع لما يفعل يحمل هموم الاسلام والمسلمين ويريد أن يفعل شيئا، لاسيما كان صاحب اموال طائلة يستطيع أن يواجه نشاطه فيما كان يريد أن يصل اليه ولو عبر العنف وسفك الدماء.

لماذا يترك انسان صاحب المليارات والمشاريع الحياة الناعمة الهادئة وليتمتع هو وأولاده بثمرات ثروته الطائلة في أرقي اماكن العالم بين المنتجعات الرائعة والفنادق المريحة الجميلة، والقصور الفخمة في احضان الجبال الخضر؟

كان يستطيع أن يؤدي واجبه الشرعي في رفد النشاط الاسلامي في العالم كله، ويأليته فعل ذلك، ولم يتجه الى منهج الهدم والتخريب وازهاق أروح الآمنين والاساءة الى الاسلام كل هذه الاساءات البالغة.

ولكنه بدل كل ذلك، حمل نفسه على الحياة الخشنة الصعبة في كهوف الجبال العالية و في صقيع الشتاء وهجير الصيف، وهو يعلم أنه مطارد ينتقل من مكان الى مكان، تلاحقه جحيم الصواريخ والقنابل والمتفجرات.

ولماذا يكون عميلا، والعملاء لا يدخلون في أجواء العمالة إلا من أجل المال والسطان، وهو يملك أموال قارون وسلطان المشاريع والصناعات.

ولكن هل الاخلاص يكفى بدون عمل مقبول عند الله تعالى.

ماذا عمل للمسلمين؟ إنه حفر لهم قبرا يكفي لدفنهم فيه جميعا.

بتخطيط منهج القتل والذبح وتفجيرات السفارتين في افريقيا، حيث مات مئات المراجعين ومعظمهم كانوا مسلمين وفي تفجير البرجين، حيث قتل حوالي اربعة الآف واحد من الرجال والنساء والاطفال. وفي تفجيرات لندن وباريس واسبانيا والمانيا،

حيث قتل الرجال والنساء والاطفال.

هذا فضلا عما فعله هو واصحابه في العالم الاسلامي من كوارث. ألم يلحق اكبر الأذى بجمال الاسلام وروعة مبادئه الانسانية أمام العالم.

وهل قتل من طغاة الغرب وعملائهم من طغاة العالم الاسلامي الذين سلموا فلسطين الى اليهودية العالمية، واضطهدوا شعوبهم وسرقوا ثرواتها وجعلوها من أفقر شعوب الأرض، ولاحقوا علماءها العاملين ودعاتها الربانين، ليصعد قادتهم الى منصات الإعدام، ويقضي شبابهم ربيع أعمارهم في قعر السجون المتوحشة.

ألم يقض على دولتين مسلمتين، أفغانستان والعراق ليدمرهما أعداء الاسلام ويؤخروا نهضتها قرنا من الزمان أو اكثر.

لماذا لم يسمع نصيحة (الملاعمر) زعيم طالبان، وكان قد بايعه كرها عندما قال له : يا اسامة لا تفعل، لأنك ستدمرنا بهذا العمل، أى عمل هدم البرجين.[1]

[1] الجماعات المتطرفة وايران، سعيد بن حازم السويدي، ص ١٥٥ وما بعدها.

الفصل الخامس
بين منهجين

استعرضنا في الصفحات الماضية معالجة منهج التوحش بمنهج توحش آخر، ونعني بذلك منهج العنف الذي يؤمن بالقتل والذبح واحداث تفجيرات في كل شيء يعتقد اصحابه أنه يوصلهم الى اهدافهم هي اقامة مجتمع اسلامي تاريخي دون مراعاة تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد كما يقول العلامة ابن القيم : (فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والاحوال والنيات والعوائد...) ثم قال : وهذا فصل عظيم جدا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف مالا سبيل اليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة أغلب رتب المصالح لاتأتي به)[1].

نعم معالجة المجتمع المسلم الضخمة المتراكمة في قرون بمنهج القوة والعنف من أجل اخضاعه لمذهب مركب متشدد من مذاهب المسلمين لاسيما ما يختارونه من مذهب الإمام أحمد بن حنبل عقيدة وشريعة وسلوكا.

---

[1] اعلام الموقعين ٣/٥.

ولا يعتقدون أن الدعوة السلمية الوسطية المعتدلة تفيد في هذا الأمر بل يعدونها دعوة البدعة والضلالة. وعلماؤها هم علماء السوء.أما المجتمع غير المسلم فعندهم هو مجتمع كافر، لابد أن نغزوه يوما من الأيام، ونخير أهله بين الدخول في الاسلام أو الجزية أو القتل وان كان جالسا في بيته كما نقلنا من قبل.

واذا كنا اعتمدنا على كتاب (مسائل من فقه الجهاد) وتنفيذ مافيه في كتاب (ادارة التوحش) المقابل سنعتمد هنا على كتاب العلامة الفقيه الشيخ (يوسف القرضاوي) (فقه الجهاد) كي نعرض المبادئ الشرعية التي يعتمد عليها والمنهج الوسطي الذي يتبعه في بيان فقه الجهاد في كتابه حيث يقول :

(ومن معالم هذا المنهج في الفقه والفهم والاجتهاد، ان نجدد الدين من داخله، وان نجتهد لحياتنا وعصرنا، كما اجتهد أئمتنا السابقون لحياتهم وعصرهم، وأن نستمد من حيث استمدوا، وأن نفهم النصوص الجزئية في اطار المقاصد الشرعية، وان نرد المتشابهات الى المحكمات والظنيات الى القطعيات والجزئيات الى الكليات، وأن نشدد في الأصول ونيسر في الفروع وان نلائم بين الثوابت ومتغيرات العصر، وأن نصل النقل الصحح بالعقل الصريح، وألا نتعصب لرأى قديم ولا نتعبد لفكر جديد، وان نتمسك بثبات الأهداف ومرونة الوسائل، وان ننتفع بكل قديم نافع، كما نرحب بكل جديد صالح، وأن تستلهم الماضي ونعايش الحاضر، ونستشرف المستقبل، وان نلتمس الحكمة من أى وعاء خرجت، وان نعرض ما عند غيرنا من منجزات على ما عندنا من اصول وقيم، فنأخذ مايوافقنا وندع مالاينفعنا)[١]

واذا قارنا بين المنهجين نجد أنهما مختلفان متضادان من الأول الى الأخير).

فصاحب (مسائل من فقه الجهاد) لا يؤمن بالتجديد، ولا يتحدث عن الثوابت والمتغيرات ولا يجتهد لحل معضلات، وانما يتبع ماقاله السابقون المتشددون، ممن يعتمد

---

[١] فقه الجهاد – ح١ ص ٤٣ مكتبه وهبه – القاهرة ٢٠٠٩.

عليهم في تأييد منهجه، ولا يستمد من حيث استمدوا، ولايحاول أن يدرس الجزئيات المبعثرة هنا وهناك في ضوء المقاصد الشرعية، ولا يرد المتشابهات الى المحكمات والظنيات الى القطعيات، وهو يسير على منهج التشديد في الأصول والفروع ولا يلائم بين الثوابت ومتغيرات العصر، حسب الاصول الشرعية، ويؤمن بالنقل ولايربطه مع العقل الصحيح ويتعصب الى الآراء القديمة ولا يناقشها، لان منهجه ليس مبنيا على المقارنة كمنهج القرضاوي، ولذلك لا ينقل آراء المخالفين ولا أدلتهم، وحتى ائمة السلفية كابن تيمية (رحمه الله تعالى)، وابن القيم وابن الصلاح وامتا لهم فانه لا ينقل آراء هم طالما تخالف ما يريد أن يثبته، أى إنه يمشي على خط واحد، وهو غير مقبول في الدراسات الفقهية المعاصرة وحتى القديمة، لأنه بعيد عن (فقه الواقع) و (فقه المقارنات) و (فقه المصالح الشرعية) و (فقه الأولويات) وفقه (الموازنات) و (فقه المقاصد) و (فقه الجهاد)، والذي قبله الإمام الشاطبي والإمام ابن تيمية، والإمام (ابن القيم) والإمام (العز بن عبدالسلام) و الإمام (القرافي) و جميع المجتهدين في هذا العصر الحديث. وهذا الفقه يتسم بالرحابة والمرونة والقابلية للتطور وتعدد وجهات النظر، واختلاف التنوع وتعدد الأنظار والرؤى دون نكير فريق على فريق آخر مادام يحترم الثوابت ويرعى الأصول الشرعية والضوابط المرعية.[١]

فمثلا هو يثبت الرأى الذي يقول إن المقصود من القتال القضاء على الكفر، أى إنه في الأصل موجه الى الكفر، ويبني على ذلك كما مرّبنا إن الكافر حتى لو جلس في بيته يجوز للمقاتل أن يقتله.

انظر الى الحافظ المحدث ابن الصلاح ماذا يقول ؟

(إن الأصل هو ابقاء الكفار وتقريرهم، لأن الله تعالى ما أراد إفناء الخلق ولاخلقهم ليقتلوا، وانما أبيح قتلهم لعارض ضرر وجد منهم، إلا إن ذلك ليس جزاء لهم على

---

[١] فقه الجهاد، ٢ / ١٣٤٣.

كفرهم، فان دار الدنيا ليست دار جزاء، بل الجزاء في الآخرة).[١]

ويقول شيخ الاسلام الإمام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) :

(إن الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يحتاج اليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾[٢]. أي إن القتل وان كان فيه شر وفساد، ففي فتنة الكفار (اضطهادهم للمؤمنين) من الشر والفساد ما هو اكبر منه. فمن لم يمنع المسلمين من اقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه) [٣].

ويقول :

(﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾[٤] ، هذا نص عام أن لانكره أحدا على الدين، فلو كان الكافر يقتل حتى يسلم لكان هذا اعظم الأكراه على الدين)[٥].

ويقول الخطيب الشربيني :

(وجوب الجهاد : وجوب الوسائل لا المقاصد، إذ المقصود بالقتال إنما هو الهداية وما سواها من الشهادة، وأما قتل الكفار فليس بمقصود. حتى لو امكن الهداية بإقامة الدليل (أي بالحجة والاقناع) بغير جهاد كان أولى من الجهاد) [٦]. هذه الاقوال المنيرة هي الفقه الاسلامي الأصيل.

واما هذا الفقه الخاص الأحادى هو الذي أدى الى العنف وتبنى منهجه و تنفيذه على الارض في القتل والمجازر والدمار، الذي يخالفه اليوم الجمهور الأعظم من

---

[١] فقه الجهاد للقرضاوي ٩/١ نقلا عن مجموع الفتاوى ٢٨ / ٣٥٥.

[٢] (البقرة: ٢١٧).

[٣] المصدر السابق ص١٠/١ نقلا عن (قاعدة في قتال الكفار) ص١٢١.

[٤] (البقرة: ٢٥٦).

[٥] المصدر السابق ص١٠/١ نقلا عن (قاعدة في قتال الكفار) ص١٢١.

[٦] المصدر السابق، ص ١٠/١ نقلا عن (مغني المحتاج في شرح المنهاج ٤٤/٦).

مجتهدى الأمة الاسلامية، إما من فتاواهم الشخصية أو في فتاوى المجامع العلمية المتعددة في بلاد المسلمين.

ولذلك لم ينتج هذا المنهج خيرا لقضية الأمة الكبرى التي، هي نقلها من مواكب الشيطان الى مواكب الرحمن. فما زالت الجماعات التي مشت في طريق العنف كجماعة الجهاد والجماعة الاسلامية والسلفية الجهادية وتنظيم القاعدة وتنظيم الدولة الإسلامية تسير على المنهج الأحادى العنيف نفسه، حتى الحقت بقضية الاسلام والعودة الى شريعته السمحة كوارث مشهودة في البلاد الاسلامية وغيرها.

ولذك تراجع إمامهم في الفقه والحركة الشيخ الدكتور فضل الإمام عن جموده العلمي هو وأصحاب له، عندما رأى ما انتهى اليه العنف من الفواجع، وأعطى حججا قاسية لكل العالم ولاسيما لملاحدة المسلمين وللمتطرفين من العلمانيين والما سونيين منهم أن يقولوا لم تعد تفيدنا هذه الشريعة الاسلامية المتخلفة التي يحملها هؤلاء التكفيريون الدمويون.

ولكن هؤلاء لجهلهم ولعداوتهم للاسلام. لا يعلمون أن الشريعة الاسلامية بنصوصها واصولها وقواعدها ومقاصدها ومراعاة مآلات تنفيذ الأحكام فيها هو عدل الله في هذا الكون.

وما اجمل واعمق ما يقول العلامة إبن القيم رحمه الله تعالى :

(إن الشريعة مبناها واساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها. فكل مسألة حرفت عن العدل الى الجور وعن الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث ليست من الشريعة في شيء وإن أدخلت فيها بالتأويل) [١].

ويقول ايضا : (فاذا ظهرت أمارات العدل واسفروجهه بأي طريق فثم شرع الله

[١] إعلام الموقعين ٣/٣ دار الجيل / بيروت ١٩٧٣ م.

فاي طريق استخرج به العدل والقسط فهي من الدين وليست مخالفة له.[١]

ولو كان هؤلاء الأحاديون التكفيرون الدمويون ينظرون الى مآلات تنفيذ ماكتبوا وما فعلوا ماأقدموا على ذلك، وتراجعوا الى الحق الذي يحقق مصالح المسلمين. انظر الى الفقيه المقاصدي المجتهد الكبير الإمام ابي اسحق الشاطبي ماذا يقذف في كتابه الخالد (الموافقات) من درر.

(النظر في مآلات الافعال معتبر شرعا، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لايحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين للإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره الى مايدعو اليه ذلك من فعل شروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ ولكن له مآل على ماقصد فيه)[٢].

ويقول العلامة ابن القيم في موضوع المآلات :

(لأن العمل قد يكون مشروعا لكن ينهى عنه، لما يؤول اليه أو ممنوعا لكن يترك النهى عنه، لما في ذلك من المصلحة)[٣].

والمصلحة لا يمكن أن تتحقق إلا بما يقول ابن عقيل الحنبلي.

(السياسة ماكان فعلا يكون معه الناس أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد، وان لم يضعه الرسول ولانزل به الوحى.

إن اردت بقولك لاسياسة إلا ما وافق الشرع، أى لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت إلا ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين كثير مما لم ينطق به الشرع)[٤].

وجوانب مهمة من هذه المصالح تظهرها السياسة، عن طريق مقاصد الشريعة التي

---

[١] الطرق الحكمية ٤٨.

[٢] ٤/١٩٤، ١٩٨- م التجارية الكبرى – القاهرة.

[٣] اعلام الموقعين ٣/٢٠٥.

[٤] الطرق الحكمية لابن القيم ٤٧-٤٨، مؤسسة الرسالة للناشرين ط١ / ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

هي كليات الشريعة التي تبني على جزئيات كثيرة في الكتاب والسنة الشرعية.

وهي تمثل الخطوط العريضة للتشريع والقواعد الكلية والضوابط العامة وهي الرافد الذي يعين على الاستنباط الفقهي في جميع مجالاته ومختلف قضاياه.

يقول الإمام الشاطبي :

(مقاصد الشرع في بث المصالح في التشريع أن تكون مطلقة لا تختص بباب دون باب ولا بمحل دون محل ولا بمحل وفاق دون محل خلاف، وبالجملة الأمر في المصالح مطرد مطلقا في كليات الشريعة وجزئياتها)[١].

إذن فقه كتاب (مسائل في فقه الجهاد) هو فقه خاص مختار قصدا من اكثر الأراء تشددا داخل المذاهب الفقهية القديمة لاسيما المذهب الحنبلي، فهو بعيد عن فقه المقاصد وفقه الأولويات وفقه الموازنة وفقه المصالح وفقه النظر الشامل في المآلات.

قارن بين منهج كتاب (مسائل في فقه الجهاد) وبين ما يقوله العلامة الإمام اين القيم (ثم هؤلاء الفقهاء يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم، ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة والمفاسد التي هي كذلك، ويقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحها ويدفعون أقوى المفسدتين باحتمال أدناهما، ولايتم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الافعال)[٢].

وبتطبيق هذه الأنواع المتشابكة من الفقه، نستطيع أن نلاحظ تطور الزمان واختلاف المكان وتحقيق مصالح المسلمين التي جاءت الشريعة بتحقيقها، جلها ودقها، وفي ضوئه راجعت الجماعة الاسلامية التخلي عن العنف الدموي وقد نشر العلامة يوسف القرضاوي في كتابه النفيس الضخم (فقه الجهاد) صفحات من مراجعاتهم الشرعية نقتبس منها مايأتي :

---

[١] الموافقات ٢/٣٦٠.

[٢] تهذيب مدارج السالكين ١/٢٣٤ – دار احسان – طهران عبدالمنعم صالح العلى العزى.

(ومما يجب أن نسجله هنا بكل اعتزاز وانصاف، ما أعلنته (الجماعة الاسلامية) في مصر وأيدها زعيمها الروحي الشيخ عمر عبدالرحمن المسجون في أمريكا فك الله أسره.[١] من إعلان مبادرة لوقف العنف والجنوح الى السلم والتخلص عن اسلوب المواجهة المسلحة مع الحكومة ونقدما وقع لها من اخطاء في طريق الصدام المسلح أو الجهاد).

(ثم أصدر الأخوة من قيادات الجماعة الاسلامية، سلسلة من الدراسات الاسلامية والواقعية تشرح المبادرة ومبرراتها والتدليل عليها بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وشروح الأئمة، سموها، سلسلة (تصحيح المفاهيم).

قال الشيخ القرضاوي (وتأتى عظمة هذه السلسلة أنها خطت وروجعت وأقرت بايدي القادة التاريخيين للجماعة الاسلامية (كرم زهدى، ناجح ابراهيم، اسامة حافظ، فؤاد الدواليبى، حمدى عبدالرحمن، على الشريف، عاصم عبدالماجد، عاصم دوبالة)، وممالفت نظرى في هذه الدراسات أن كتبي كانت من المحظورات عندهم ولكني وجدتهم ينقلون منها صفحات وصفحات في مواضع شتى. وهذا يدل على أن القوم مخلصون في توجههم وانهم تحرروا من العقد القديمة ومن أسر التعصب لمدرسة واحدة، وهذا من دلائل الرشد والتماس الحكمة من أى وعاء خرجت.[٢]

وقال القرضاوي :

(لقد وجد الأخوة أن الجهاد أو القتال للانظمة الحاكمة الذي كانوا يتبنونه وبعتقدونه امرا واجبا لم يعد اليوم واجبا لوجود موانع كثيرة منها..).

وقد عدوا موانع بينوها ودللوا عليها في كتابهم الأول (مبادرات وقف العنف –رؤية واقعية ونظرة شرعية، منها :

---

[١] توفي في سجنه في بداية الشهر الثاني من هذا العام (٢٠٠٧).

[٢] فقه الجهاد ١٣١٠ – ١٣١١.

ـ أن يغلب على الظن أن الجهاد أو القتال أو الصدام والمسلح لن يحقق المصلحة المتوخاة منه والتي شرع من أجلها.

أقول [١] : أية مصلحة ؟ بل صنعوا للمسلمين فجائع وكوارث من تخريب البنيان وقتل الرجال والنساء والاطفال الآمنين والسياح المؤتمنين ومئات الشباب منهم، والحاق الأذى بالناس وتشويه سمعة الاسلام في الداخل والخارج مما لايخفى على المراقبين والباحثين.

- إذا تعارض القتال مع هداية الخلق (بل أصبح منفرا لهم).

أقول : بل هذه الهجمات الدموية ترتبت عليها أمور خطيرة في داخل العالم الاسلامي وخارجه وآذى مصالحهم ومستقبلهم ودعوتهم لدينهم، وحالت بين الوف الالوف في دخول الاسلام في كل بلد من بلدان العالم الغربي وغيره.

- العجز، أي عدم القدرة، فكل الواجبات تسقط بالعجز : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[٢].

أقول : وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية :

(فالعالم في البيان والبلاغ قد يؤخر البيان والبلاغ الى وقت التمكن كما أخر الله سبحانه انزال آيات وأحكام الى وقت تمكن رسول الله ﷺ. والحجة على العباد إنما يقوم بشيئين بشرط التمكن من العلم بما انزل الله والقدرة على العمل به)[٣].

- (أن يؤدي الجهاد الى التهلكة، كما قال تعالى:

﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[٤].

---

[١] هذه لي وليس الشيخ القرضاوي.

[٢] (التغابن: ١٦).

[٣] مجموع فتاوى، شيخ الاسلام ابن تيمية، ٢/٥٩ — ٦١.

[٤] (البقرة: ١٩٥).

– وجود مسلمين في صفوف المشركين، فان حرمة دم هذا المسلم الذي اختلط بالمشركين ولم يتميز عنهم، تصون دماء هؤلاء وتحرم المساس بهم حماية للمسلمين معهم. وفي هذا يقول القرآن : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[١].

أقول : بل إن لم يكونوا مقاتلين، فلا يجوز أصلا قتلهم ودليل قوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾[٢].

ويقول الإمام ابن تيمية :

(ومن لم يمنع المسلمين من اقامة دين الله، لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه...) وفي ذلك قال (إن الله أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه من صلاح الخلق)[٣].

– إذا كانت المفاسد والفتن المترتبة على القتال أعلى من المصالح المتوقعة منه أو اذا كان ما يضيعه من المصالح أعظم مما يجلبه منها.

أقول : وكيف اذا كانت الفتن والفجائع التي تنتج من العنف الدموى قضاء مبرما على أية مصلحة.

(عدم بلوغ الدعوة، ولا يجوز قتال من لم يبلغه الدعوة).

أقول : حتى لو بلغته بالتمام والكمال، لم يجز أن يقتل، وحينئذ ما نفعل بقوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٤].

---

[١] (الفتح: ٢٥).
[٢] (الممتحنة: ٨).
[٣] مجموع الفتاوى ٢٨/٣٥٥.
[٤] (الكهف: ٢٩).

وقضايا أخرى ذكروها في هذا المجال، أضرب عنها صفحا خوف الإطالة.

يقول الشيخ القرضاوي :

(وختموا الكتاب بهذه الفقرة القوية المعبرة عن اتجاههم الجديد) قالوا (فاننا كجزء من الحركة الاسلامية يجب أن يكون واضحا أمامنا الهدف الذي نسعى اليه، ولابد أن نقيّم كل خطوة نخطوها على ضوء مدى مساهمتها في تحقيق هذا الهدف. وإن هدفنا الأسمى هو ما جاءت به الرسل أقوامهم : ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1]. هدفنا تعبيد الناس لربهم، أى هداية الخلق. ولابد أن نمتلك الشجاعة الكافية للاقدام على أى قرار نراه محققا لهذا الهدف. ولابد أيضا أن نمتلك الشجاعة الكافية للاحجام عن أى قرار نراه مباعدا بيننا وبين هذا الهدف.

ولابد بذلك أن نمتلك شجاعة اكبر واكبر للعدول عن أى قرار أو خطوة قد أقدم عليها بعضنا بالفعل، ويتبين لنا أنها لن تعين على الوصول لهدفنا سالف الذكر. أعنى هداية الناس، وليس من الشجاعة في شيء أن نترك رحى الحرب دائرة بين أبناء وظننا، ونحن متأكدون أنها قبل أن تطحن جماجم وعظاما، ستطحن دعوة هذا الدين.

بل الشجاعة هي ما فعل رسول الله ﷺ، حين رأى المصلحة في ترك قتال قريش، فوادعهم حتى قال عمر : ولم نعطي الدنية في ديننا ؟

ومن شجاعته تعلم خالد بن الوليد، فانسحب بالمسلمين يوم مؤته تاركا القتال حتى صاح فيه وفي جيشه بعض المسلمين : يافرار يافرار.

وعن رسالة نبينا ﷺ تلقينا ومنه تعلمنا، منه أصدرنا مبادرة وقف الأعمال القتالية بمصر.

نعم سيعتب علينا بعض اخواننا قائلا، والشرع الغائب، والحاكم الذي لايحكم بما

---

[1] (المؤمنون: ٢٣).

أنزل الله !! وسنقول أولا : لم يكن القتال الدائر لتحكيم الشرع ولاخروجها على حاكم لتغييره، بل كان احتياجا على مظالم واقعة، وسعيا لاسترداد حقوق ضائعة.

ونقول ثانيا : وهو الأهم : إن ماسلفنا الحديث عنه كموانع للقتال، هذه الموانع متى تحققت تحظر الجهاد وتمنعه، سواء كان خروجا على حاكم أو دفعا لمظالم أو غير ذلك، فما دام الخروج لايجدي نفعا ولا يحقق هدفا ولايزيل مفسدة، ففيه من المفاسد والفتن مالا يحيه إلا الله. وكان في ذات الوقت يؤدي الى إغلاق سبل الدعوة، فضلا عن إهلاكه لطائفة عظيمة من الدعاة الى الله، وهم أصلا عاجزون عن هذا القتال ولاطاقة لهم به، وكانوا أفرادا متفرقين في البلاد يسهل استئصالهم إن هم اجمعوا على القتال، فبأى دليل كله نقول لهم : أريقوا دماءكم وأريقوا دماء بني وطنكم.

وبعد كلام طويل قالوا :

(والخلاصة : ان الأصرار على القتال سواء كان في مصر أو غيرها من البلدان طالما أنه قد جلب من المفاسد العظيمة على الدين والدنيا، ولم يحقق أى مصلحة تذكر لا في دين ولادنيا، كان هذا القتال محرما وممنوعا شرعا وعقلا).

وواصل هؤلاء الدفاع عن موقفهم بالأدلة الشرعية والعقلية والواقعية تحت عنوان (حرمة القاء النفس الى التهلكة) و (حرمة قتل المدينيين من غير أهل المقاتلة والممانعة) و(الدستور الاسلامي للقتال) و (حرمة قتل المستأمنين وقضية السياحة) و (من له حق الأمان).

وبدل أن يستفيد من هذا البيان الشرعي الرصين، كل من اسامة بن لادن والدكتور ايمن الظواهري واتباعهما، فيغيروا مسلكهم الدموى الى نشر الدعوة الاسلامية في انحاء العالم، ردوا عليهم هذه المصالحة الواقعية التي تحقق مقاصدا الشريعة و مصالح المسلمين باشعال نار شاملة، وقادوا جماعات الشباب المؤمن المتحمس في بلاد الاسلام وبلاد

الغرب الى المحن الكبيرة والحقوا بقضية الاسلام دينا ودعوة وامة خسائر كبيرة جدا في الأتجاهات كلها.

وهذا الذي بينته بايجاز قبل أن أقرأ بيان المراجعة، لأن القضية واضحة أمام الأعين المراقبة للاحداث، المهتدية بهداية الدين ومعرفة الشرع المبين والفحص الدقيق للواقع الأليم.

هذه هي طريقة إدارة التوحش التي بينوها هم في منهجهم بلا تردد وبلا قناع ورفضوا في ضوئها مناهج الحركات الاسلامية كلها، طريقة جماعة الاخوان المسلمين وطريقة (حماس) و طريقة (الجهاد الاسلامي في فلسطين) و طريقة (سلفية الصحوة)[1].

نعم هذه عقيدة أهل إدارة التوحش، ممن سموا انفسهم حركة التوحيد والجهاد أو السلفية الجهادية أو القاعدة واخيرا الدولة الاسلامية أو الخلافة في العراق وبلاد الشام.

يقول العلامة القرضاوي :

(وقد تبين للدارسين والمراقبين لاعمال العنف والمقاومة المسلحة، أنها لا تحقق الهدف منها، فلم تسقط بسببها حكومة، بل لم تضعف بسببها حكومة...

لقد انتصرت الحكومات دائما على جماعات العنف التي لم تكسب شيئا بل خسرت على عدة مستويات.

مستوى الخسائر الشخصية، فكثيرا ما يقتل هؤلاء الشباب، ومن لا يقتل منها يساق الى السجون ويقضى سنوات كثيرا ما تطول، ويتعرض للاذى البدنى والنفس، ويخسر كثير منهم جامعته إن كان طالبا و وظيفته إن كان موظفا وتجارته إن كان تاجرا وتتعرض اسرته الى الضياع المادى والأدبي في غيبته، هذه خسائر كبيرة وحقيقية، وقد رأينا ولمسناها...

---

[1] إدارة التوحش، ص ٣ — ٤ المقدمة.

مستوى الخسائر للدعوة الاسلامية نفسها في الداخل والخارج، باستغلال حوادث العنف التي تحدث من هذه الجماعات لتشويه صورة الاسلام وأهله، وتصوير الاسلام بأنه خطر على العالم، وتصوير المسلمين بأنهم وحوش، لاقلوب لهم ولاتعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلا...

إعطاء الذريعة لضرب التيار الاسلامي كله، معتدله ومنطرفه، رقيقه وعنيفه، وقطع الطريق على تيار الوسطية الاسلامية، وما يقدمه من اطروحات للحوار مع الآخر والتسامح مع المخالفين..

خسائر على مستوى الوطن، يشغل بعضه ببعض وضرب بعضه ببعض بدل أن ينشغل بالتنمية والإبداع وتطوير نفسه وتجديد شبابه وتجنيد قواه كلها للمساهمة في نهضته وتنميته ورقيه، لا يخلف عن عالمه وعصره، عصر الثورات العلمية لهائلة.

خسائر على مستوى الأمة الاسلامية الكبرى، فبدل أن يواجه أبناؤها أعداءهم الحقيقين الذين يحتلون أرضهم وينتهكون حرماتهم، يواجه بعضهم بعضا وبدل أن يخوضوا معارك البناء والتنمية والتقدم حتى تتبوأ الأمة مكانتها يخوضون معارك ليقاتل بعضهم بعضا، وبدل السعى لتوحيد الأمة أو تقريب بعضها من بعض، تزداد الأمة تمزقا وتناحرا ويذوق بعضهم بأس بعض.[١]

أقول :

وهنا وبعد أن رأوا نتائج تطبيق منهجهم الدموى العنيف في بلاد الاسلام وبلاد الغرب، من تخريب ودمار وقتل وذبح وتعذيب وسجون واعدامات واساءة بالغة لدينهم وشريعتهم وحضارة أمتهم.

نسأل الله تعالى أن يهديهم الى الحق ومراجعة أنفسهم، ليعترفوا باخطائهم ومخالفاتهم الشرعية، ويحقنوا دماء شبابهم ودماء المسلمين وغيرهم. وينتقلوا من الوحى

---

[١] فقه الجهاد ٢/١٣٠٨ — ١٣١٠ م.

الى العصر، وليس من التاريخ الى العصر، ففى الانتقال الأول تجدد في أمر الدين، وفهم راسخ للواجب الشرعي وادراك دقيق للواقع المتغير. وحركة وبناء وعدالة، وحب ورحمة ووحدة، وفي الانتقال الثاني، نكوص الى الماضي وقتل للحاضر والمستقبل.

واذا فعلوا ذلك باخلاص وصحة عمل، اندمجوا بالحركة الاسلامية الشاملة المعاصرة، ورفدوها بطاقاتهم الكبيرة وامكاناتهم الضخمة، من أجل تربية الأمة وبنائها وتطبيق مقومات كتاب ربها وسنة نبيها، كي تستقم كلمة التوحيد وتترسخ وحدة الكلمة، لمواجهة التحديات الهائلة التي تواجه الأمة الاسلامية اليوم وغدا.

وبعد كلام وطويل للشيخ القرضاوي في مناقشة فقه جماعة العنف وقتالها ضد الأنظمة الحاكمة [١]، يقول :

(والأولى بالمسلمين هنا أن يتفقوا على آليات سلمية للتغيير ويستفيدوا مما وصل اليه العالم عن طريق الوسائل الديمقراطية في التغيير أو أي طريق أخرى لا تترتب عليه فتنة في الأرض وفساد كبير، والمؤمن يلتمس الحكمة من أى وعاء خرجت، ولا حرج على المسلمين أن يقتبسوا من الوسائل عند غيرهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم مادامت هذه الوسائل غير مخالفة لنصوص الشرع ولا قواعده بل هي من المصالح المرسلة التي تتحقق بها مقاصد الشريعة ومنافع الناس.[٢]

---

[١] فقه الجهاد ١١٣١ - ١١٧٠.

[٢] فقه الجهاد ٢/١١٧٠.

الفصل السادس
التكفيريون والقواعد الشرعية

الشريعة الاسلامية جاءت لتحقيق مصالح الناس، دقها وجلها، وهي المقصود لها. ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهي :

- أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم.

قال الإمام الغزالي :

فكل ما يتضمن هذه الأصول فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول، فهو مفسدة وتركها مصلحة.

وقال : (وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها اصلاح الخلق.[1]

وللمقاصد قواعد تضبطها بناء على استقراء الأدلة الشرعية الكلية والجزئية التي ثبت ان الشارع قصد الى حفظ المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية.

[1] المستصفى ٢٧٥، ٢٧٦، ت: عبدالله محمود عمر – دار الكتب العربية – ط الثانية، لبنان ٢٠١٠ م.

ولاشك أن المصالح والمفاسد هي التي تحدد دائرة المقاصد، فاذا كانت المصالح هي الغالبة على المفسدة في حكم العادة، فهو المقصود شرعا ولتحصيلها وقع الطلب على المكلفين، وكذلك المفسدة اذا كانت هي الغالبة على المصلحة في حكم العادة، فرفعها هو المقصود شرعا، ولأجله وقع النهى، وبحسب عظم المفسدة يكون الإتساع والتشدد في سد ذرائعها.[١]

إذن المقاصد الشرعية تمثل الخطوط العريضة للتشريع والقواعد الكلية والضوابط العامة، وهي الرافد الذي يعين على الاستنباط الفقهي في جميع مجالاته ومختلف قضاياه.

وبناء على ذلك فان المقاصد هي التي يجب أن تحكم المتغيرات لا عبارات الفقهاء واجتهاداتهم التي قد ترتبط باجتهادات ماضية، في ظروف متغايرة، والتي تعتمد أحيانا المنهج التجزيئي المبعثر الذي أهمل النظر فيما وراء النصوص من العلل والحكم والمقاصد النهائية.

ولو عرضنا كل مافعلته الجماعات المتشددة التي تؤمن بالعنف الدموى والتي تسمى نفسها بالسلفية الجهادية في البلاد الاسلامية وغيرها، نجدها قد فوتت الأصول الخمسة الكبرى تفويتا جوهريا واسعا جدا.

فاما (الدين) الاسلامي فقد اظهروه امام العالم بانه دين دموى لا رحمة فيه، يفرض نفسه على الناس بقوة السيف، وان الكافر بحد ذاته لا يرحم، وأنه يجوز أن يقتل حتى لو كان مسالما جالسا في بيته، وقد مرّ بنا هذا في كتاب (مسائل في فقه الجهاد) وحتى في تطبيقهم لبعض أحكام الشريعة، خالفوا الشريعة كالرجم على سبيل المثال (الذي اختلف الفقهاء المعاصرون اليوم فيه).

---

[١] راجع كتابي (من البلاغ المبين الى السياسة الشرعية) ص ١١٢ الأولى – مكتب التفسير ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٠ م.

فقد جاؤوا بأمرأة متزوجة زانية، وصوروا التنفيذ أمام العالم، ونقل الى القنوات الفضائية ليكون حجة أمام العالم الجاهل لحكم أحكام الشريعة، أنه دين متوحش قاس جدا، بينما القرآن الكريم يقول : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] والطائفة في اللغة عدد لا يتجاوز العشرة في رأي جمهور المفسرين.[٢]

وشهود مئات الملايين لهذه الحادثة وغيرها المشابهة للوضعية التي نفذت فيها، سيبعدهم عن الاسلام نهائيا، ويعدونه دينا ارهابيا متوحشا دوميا، بل ومعظم المسلمين الغافلين البعيدين عن مبادى وأحكام دينهم.

وهذا تاتج عن عدم ادراك مآلات مايقدمون عليه، من الحاق اشد الأضرار باحكام الاسلام الحقة.

وأما النفس البشرية، مسلمة أو غير مسلمة، التى كرمها الله غاية التكريم في قوله : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[٣]. ولاجله لا يجوز إعدامها إلا بأدلة شرعية قاطعة، ينفذها قضاء الدولة الاسلامية الحقيقية بادلة لا تأويل فيها.

وما نفذوا من الإغتيالات و التفجيرات وقتل الوف من الرجال والنساء والاطفال الآمنين، كان تجاوزا واضحا لأحكام الشريعة الاسلامية. في المحافظة على النفس الإنسانية.

لقد تجاوز التكفيرون باصنافهم عقائد أئمة اهل السقة والجماعة جميعا، واتخذوا لأنفسهم مفتين من غير الراسخين في علوم الشريعة، يفتون لهم دون الاستناد اليها، ولا الى اصولها وقواعدها ومقاصدها ومآلات تنفيذ الأحكام فيها، فكفروا نتيجة لهذا

---

[١] (النور: ٢).
[٢] القرطبي ٤٩/١٢ دار الكتاب العربي – بيروت ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.
[٣] (الإسراء: ٧٠).

الجهل المركب والانحراف الخطر، طوائف من دعاة الاسلام وعلمائه والرجال الساهرين على أمن المجتمع، فسفكوا دماءهم بل تجاوزوا الى ماوراء ذلك الى قتل عامة الناس في الاسواق والطرقات من الرجال والنساء والأطفال من خلال التفجيرات.

قال الإمام الشاطبي في الاجتهاد المقبول وغير المقبول : (الاجتهاد الواقع في الشريعة ضربان : أحدهما : الاجتهاد المعتبر شرعا وهو الصادر عن أهله، اضطلعوا بمعرفة ما يفتق اليه الإجتهاد، والثاني غير المعتبر، وهو الصادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد اليه، لأن حقيقته أنه رأى بمجرد التشهي والأغراض وضبط في عماية واتباع للهوى، فكل رأى صادر على هذا الوجه، فلا مرية في عدم اعتباره، لأنه ضد الحق الذي أنزل الله، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[1]. وقال ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[2].[3]

وجميع الفتاوى الصادرة من التكفيريين هو اتباع الهوى، وقد أخبر النبي ﷺ بذلك في قوله (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا، ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسألوهم فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[4].

فمثلا في العراق بعد الاحتلال الامريكى (٢٠٠٣) أباحوا لأنفسهم قتل الأئمة والخطباء ودعاة الاسلام لمجرد دخولهم العملية السياسية كالانتخابات وغيرها دون أن يسألوا أنفسهم لماذا فعلوا ذلك ؟ وما الحكمة من وراء ذلك ؟ وما دليلهم الشرعي ؟ ثم هل أنهم ذهبوا اليهم وناقشوهم في ذلك ؟ وهل أن اجتهادهم يستدعي التكفير

---

[1] (المائدة: ٤٩).

[2] (ص: ٢٦).

[3] راجع الموافقات ٤/ ١٦٧ التجارية – مصر. ت/ دراسة.

[4] البخاري ١/٣٣، ٣٤ كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم.

قطعا ؟ وهل دعوهم الى التوبة اذا ثبتت عليهم الحجة ؟ وهل من حقهم الشرعي أن ينفذوا هم وحدهم أم هذا من اختصاص الدولة المسلمة المنتخبة؟

إنهم لم يفعلوا كل ذلك !!

وإنما وقفوا أمام بيوتهم ومساجدهم وبمجرد أنهم خرجوا منها، اطلقوا عليهم النار، فقتلوهم دون سؤال ولا مناقشة ولا دفاع ولا دعوة الى التوبة ودون التأكد من فعلهم، هل هو قطعا حرام أم لا ؟

قال الإمام الشوكاني (اعلم ان الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الاسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه، إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فانه قد ثبت في الاحاديث الصحيحة المروية عن طريق جمع من الصحابة (رضي الله عنهم) أن من قال لأخيه ياكافر، فقد باء بها أحدهما)[1].

فكيف بعلماء الاسلام في العراق الذين رفضوا الاحتلال على منابر مساجدهم ودعوا الناس الى مقاومته، يقتلون أمام مساجدهم وبيوتهم، لمجرد أنهم دعوا اهل السنة الى الدخول في الانتخابات والانخراط في مسلك الجيش والقوى الأمنية والوظائف الحكومية من أجل ألا تضيع حقوقهم، وألا يختل توازن المجتمع العراقي، لتنفرد طائفة واحدة بالحكم فتقصى أهل السنة عن التقدم في مؤسسات الدولة وشؤون الحياة، ولكي لا يتجزأ العراق بهذه السياسة التي بذر بذورها الاحتلال.

واما دعاة الاسلام الذين رفضوا الاحتلال في قنواتهم الاعلامية، وقاوموه مقاومة سياسية على الأصعدة جميعها، سواء في مجلس الحكم أم في المجلس الوطني أم في الجمعية الوطنية أم في مجلس النواب، مع تأييدهم المقاومة المسلحة الشرعية وحقها في الدفاع عن بلدها، وقد عرفوا سابقا ولا حقا في المجتمع العراقي بأنهم يدعون الى تحكيم

---

[1] ايثار الحق على الخلق، ص ٤٢.

الشريعة الاسلامية ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحاولون أن يصوغوا جيل الشباب صياغة اسلامية ربانية رفيعة.

فبأي دليل شرعي قتلهم التكفيريون في العراق؟ ألأنهم دعوا الى الدخول في العملية السياسية لمقاومة مشاريع الاحتلال في العراق و الوقوف أما م حكم طائفة واحدة ؟ حتى لا تضيع حقوق الطوائف الأخرى، فيجزأ العراق وينتهى الأمر الى حرب اهلية تأكل الأخضر واليابس[١]

وأما العقل فحاصروه، وسلبوا منه الأختيار خلافا لحكم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، الذين قطعا في أن حرية الأنسان مكفولة في قبول الكفر والايمان : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[٢]. في هذه الدنيا، والحساب والمحكمة في الآخرة، لأن هذه الدار دار عمل وليس دار جزاء.

أما الأجتهاد العقلي فقد أباحه الاسلام للعقل المسلم في أمور الدنيا كلها التي تستوجب الاجتهاد، في ظل أصوله وقواعده ومقاصده العليا. ومآلاته التي يرتبط بها تنفيذ الأحكام.

إن منهجهم في فهم شبكة الشريعة بعيد كل البعد عن استعمال العقل في اكتشاف حكمتها، فهم يجمدون على ظواهر النصوص دون معانيها وعللها وحكمتها والمقاصد الكامنة وراءها.

وهذه الثغرة الخطيرة هى التي تحدث عنها الإمام القرافي في كتابه القيم (الفروق) حيث يقول :

(ومن خرج الفروع بالمناسبات الجزئية غير الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت وتزلزلت خواطره فيها وضاقت نفسه لذلك وقنطت، واحتاج الى حفظ الجزئيات

---

[١] راجع هذه التفاصيل وغيرها في كتابي (قواعد أهل السنة والجماعة في التكفير).

[٢] (الكهف: ٢٩).

وانقضى العمر ولم تقض نفسه من طلب مناها، ومن ضبط بقواعده استغنى عن حفظ اكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات)[١].

وقد تبين لنا عندما تحدثنا عن منهج كتاب (مسائل في فقه الجهاد) كيف أنه يتبني جزئية معينة في اتجاه واحد دون الاهتمام بالمقاصد الكلية التي وراء الجزئيات المقتبسة من ظواهر بعض النصوص.

وأما النسل فقد قطعوا جانبا كبيرا منه بقتل عشرات الالوف من الرجال والنساء والكبار والصغار في انحاء العالم حاضرا ومستقبلا، لأن الشباب. والكبار المنتجين للنسل كما أراد الله من حكمة الزواج حرموا بموتهم من الزواج، لاسيما المسلمين الذين شجعهم الاسلام على الزواج وتكثير النسل.

وأما المال فحدث ولاحرج، فقد أضاعوا على أصحاب البيوت و الاسواق والعمائر من المال الذي لا يعلمه إلا الله تعالى في انحاء العالم الاسلامي عبر التفجير والهدم.

هذه التفجيرات أدت الى اضاعة المال العام والخاص بحيث أن شيخا من المفتين لهم في بداية الأمر، هو الشيخ ناصر بن محمد الفهد، لما رأى بام عينيه هذه الفجائع في هدم البيوت والمساجد واماكن العبادة ونكبة الأفراد والعوائل وازهاق الأرواح البريئة أعلن البراءة أمام الله تعالى من نتائج ماقال وأيد وا فتى. وقال في بيانه أن هذه الأمور محرمة في الشريعة، وان هذه الاعمال ليست جهادا في سبيل الله.[٢]

- ولو قوفهم على ظواهر النصوص المبتورة عن سابقاتها ولاحقاتها، لم يدرسوا مقاصدها واسرارها الحكمية المنضبطة، ومن خلال تفسير واحد أو استباط اجتهادى واحد. ولم يراجعوا ماكتبه كبار المجتهدين لتحقيق مصالح الناس فيها وابعادهم من

---

[١] الفروق ١/٢، ٣.

[٢] الارهاب ٢٢١ ومابعدها.

الفساد عنها، لاسيما اولئك الفقهاء الكبار الذين عاشوا في مثل أوضاع عصرنا من سيطرة الصليبين والتتار على العالم الاسلامي وسقوط مراكز القوة فيه بايديهم. كابن عقيل والعز بن عبدالسلام والقرافي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي فضلا عن أئمة كبار سبقوهم كالإمام مالك والجوينى والغزالي.

ولعدم اهتمامهم بالدراسة العلمية الدقيقة، اهملوا النظر في مآلات الأفعال عند تنفيذ الأحكام، لاسيما في القرارات المصيرية المتعلقة بمصالح المسلمين في الداخل والخارج. ومآلات ماقرروا وما أقدموا عليه وما نفذوا رجعت بويلات كبرى عليهم وعلى المسلمين وغير المسلمين.

يقول الإمام ابن تيمية (اذا اشكل على الناظر أو السالك حكم شيء هل هو على الإباحة أو التحريم، فلينظر الى مفسدته وثمرته وغايته، فان كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة، فانه يستحيل على الشارع الأمر به، أو اباحته لاسيما إذا كان مفضيا الى ما يبغضه الله) [١].

ويقول الشاطبي : (النظر الى مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين للاقدام أو الاحجام إلا بعد نظره الى مايؤول اليه ذلك الفعل، مشروعا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه. وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك. فاذا اطلق القول في الأول بالمشروعية، فربما أدى استجلاب المصلحة فيه الى مفسدة تساوى المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعا من اطلاق القول بالمشروعية وكذلك اذا اطلق القول في الثاني بعدم مشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة الى مفسدة تساوى أو تزيد، فلا يصح اطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال

---

[١] الفتاوى ١/١٧٥.

للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عزب المذاق، محمود الغب جار على مقاصد الشريعة)[١].

ويقول :

(وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة فان صحت في ميزانها فانظر في مآلها بالنسبة الى حال الزمان وأهله، فان لم يؤد ذكرها الى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول، فان قبلتها فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم وإما على الخصوص، إن كانت غير لائقة بالعموم.

وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية)[٢].

ومجمل القول : إن النظر في المآلات يقتضى دائما دراسة الواقع بشمولية وعمق، وفهم سديد، ثم استنباط الحكم الشرعي المناسب للمستجدات الواقعة.

– إن هذه الجماعات التكفيرية المتشددة الحقوا بما فعلوا من تطبيق منهج العنف كردود فعل لما ارتكبته دول الاستكبار العالمي من الصليبين والصهيونيين وعملائهم من حكام المسلمين في العالم الاسلامي من جرائم وتخريب، الحقوا أشد الأضرار والمأسى بقضية الاسلام والمسلمين الكبرى في العالم، التى كانت تمشي في الوصول الى غايتها في خطين متوازيين.

١) إحياء العالم الاسلامي بايقاظ المسلمين وتربيتهم على القيم الاسلامية تمهيدا لتطبيق شريعتهم الغراء من خلال ما يأمره سبحانه وتعالى من الأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، ثم الدخول في العصر الحديث

---

[١] الموافقات ٤/١٩٨.

[٢] الموافقات ٤/ ١٩٤ – ١٩٨.

بتقوية الأمة الاسلامية ماديا ومعنويا لصنع حضارة ربانية انسانية متوازنة تصنع شهودا وسطيا حضاريا جديدا بها وبالبشرية جميعا.

٢) هداية الأمم والشعوب غير المسلمين عبر عقيدته الصافية وشريعته الحكيمة ونظام اخلاقه وسلوكه المنبعث من اسماء الله الحسنى.

أقول الحقوا اكبر الأضرار بهاتين القضيتين المهمتين، لقد كان نموذج العنف الدموى الواسع الذي نفذ عمليا ونشر واقعا على شاشات التلفاز في العالم، مخيبا حيث كان أهل النظر يعتقدون أن الاسلاميين هم أجدر الناس بان يقوموا بعملية إصلاحية واسعة، يعيدون الحركة والبناء والتغيير لجسد الأمة الاسلامية، من ايجاد نهضته عامة، تعيد اليها الشهود الحضارى الاسلامي الجديد، فيكون نموذجا أمام المسلمين جميعا وامام العالم المادى المتأزم روحيا ومعنويا وقيميا، أن يعود الى رشده، فيقتبس من المسلمين التوازن القيمي الجامع المنبعث من انعكاسات وضلال الاسماء الحسنى، فاذا الموضوع كله يتحول الى عنف وتفجير وقتل وخراب.

لقد وسعت –وأسفاه– دائرة تلك الخيبة المتماوجة المنداحة بخبث شديد، من لدن المراكز السياسية والأمنية والثقافية والكنسية التي كانت اسيرة أصلا للمعلومات التاريخية المكثفة التي ربت جيلا بعد جيل منهم على الحقد المتفجر من الاعماق على الاسلام والمسلمين.

– الرجوع الى اختيارات فقهية ضيقة انتجتها الأزمان الماضية، ولا علاقة لها بالتغيير الهائل المعاصر سواء في حياة أمتهم أم حياة غيرهم.

مع جانب عدم إدراك التخلف الهائل في نواحي الحياة جميعا الذي أصاب حياة المسلمين وابعدهم من دائرة الرحمن بقيادة رسول الله ﷺ الى دائرة الشيطان.

وموضوع اخراج المسلمين من هذه الهوة الكبيرة ونقلهم من دائرة الشيطان الى دائرة الرحمن يحتاج الى جهود كبيرة جدا. وهذه القضية ليست قضية العنف والذبح والقتل والتفجير التي ارجعت نهضة المسلمين قرنا آخر الى باطن التخلف الماضي.

إن الخطوات الحكيمة من خلال تفكير سليم وتربية متواصلة وعمل دؤوب واصطناع الوسائل المعاصرة في الاقناع للبناء والتغيير والتقدم الى الإمام واندفاعة حضارية شاملة هي الكفيل الضامن بدفع العالم الاسلامي الى استعادة هويته واصالته وقيمه وحركته لاحداث الأنموذج الامثل أمام الانسانية جمعاء.

إن دراسة خطوات الرئيس أردوغان وحزبه وتمسكه بالقانون الفطرى التدريجي في التغيير ينفعنا في اسناد نظرية الجماعات الاسلامية الاصلاحية الوسطية المعتدلة.

فقط استطاع هو وحزبه أن ينقلوا تركيا حضاريا الى دولة غنية وأن ينقذوه من تحت ركام علمانية لادينية متطرفة عدوة للاسلام الى علمانية معتدلة لاتقف أمام الخطوات التدريجية الحكيمة اليسيرة نحو المجتمع الاسلامي التكاملى.

يكفى أن الجيش الكمالى اللادينى المتطرف الذي كان يرفض رفضا قاطعا أن يدخل فيه أى من يشم منه أو من عائلته رائحة التدين، يصلي فيه الجنود والضباط اليوم صلاة الجماعة في مؤسساته ومعسكراته. وان المرأة المسلمة المحتشمة كان ممنوعا عليها أن تدخل الجامعات والدوائر الرسمية، تدخل اليوم بحرية كاملة فيها بتقدير واحترام.

وهكذا يصح أن تتحدث عن كثير من مظاهر الحياة السياسية والثقافية التي تغيرت بصورة محسوسة في تركيا المعاصرة بعد مجئ حزب العدالة والتنمية بقيادة اردوغان.

- تجاهلت هذه الجماعات الدموية المتشددة الأوضاع الداخلية والإقليمية والعالمية وقوة المراكز السرية والعلنية ومدى تغلغلها في نسيج دول الاستكبار والهيمنة والقرار، وسيطرتها الحضارية المادية المتوحشة على العالم عسكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا

وثقافيا وتربويا واستطاعتها على سحق أية قوة اسلامية مخلصة تظهر فتخطط لبناء الأمة من جديد، وتطبيق شريعة الله ولو بصورتها العصرية المتقدمة، لاسيما من خلال اوضاع تخلف المسلمين وضعف هويتهم وبعدهم العام عن دينهم واصالتهم وعمالة الكثيرين من رجالاتهم لهم.

– إن هؤلاء باجماع المجتهدين في هذا العصر خالفوا قواعد التكفير عند أهل السنة والجماعة.

يقول الإمام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) : (إن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من اعظم المنكرات، لما يعتقدون أنهم اخطأوا، ولقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم لمجرد الخطأ المحض.

بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول ﷺ، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأ يكفر أو يفسق بلا اثم).[١]

ويقول : (والمجتهد من أمة محمد ﷺ إذا اجتهد وقصد الحق فاخطأ لم يكفر بل يغفر له خطؤه)[٢].

وانطلاقا من هذه القاعدة الواضحة فان ابن تيمية في الوقت الذي يرد فيه على المتكلمين من المدارس الاسلامية المتنوعة، ويبين أخطأءهم من وجهة نظره، فانه لا ينسى حسناتهم وماقدموه للاسلام من خدمات فيقول :

ويقول : (لا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة وان كان ذلك في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الامة.

واذا كان الله تعالى يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بارض جهل مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب إدراكه في زمانه ومكانه، إذا كان

---

[١] مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٣ / ١٠٠.

[٢] المصدر السابق ١٨/١٢.

مقصده متابعة الرسول ﷺ بحسب إمكانه هو أحق بان يقبل الله تعالى منه حسناته ويثيبه على اجتهاده ولايؤاخذه بما أخطأ لقوله : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[١].

(ثم ما من هؤلاء إلا له في الاسلام مساع مشكورة وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الالحاد والبدع لكثير من مسائل أهل السنة والدين مالا يخفى على أحد ممن عرف احوالهم وتكلم فيهم، فعلم ما فيهم من صدق وعدل وانصاف) [٢].

ويستمر ابن تيمية في بيان مختلف جوانب هذه القضية فيقول :

(لا يجوز تكفير المسلم دون تقديم أدلة شرعية قاطعة لا تأويل فيها، فكل من قال (لا إله الا الله محمد رسول الله) يدخل بذلك الى أمة الاسلام، ومن ثبت ايمانه بيقين، لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد اقامة الحجة وازالة كل بشهة)[٣].

ويستمر فيقول : (ولا يكفر الشخص المعين حتى تقوم الحجة.. وكنت أقول لهم إن ما ينقل عن السلف والائمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو ايضا حق، ولكن يجب التفريق بين الاطلاق والتعين)[٤].

ويقول في بيان ذلك :

(لكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه)[٥].

ويقول (رحمه الله) عن نفسه (هذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني إني من اعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين الى تكفير وتفسيق ومعصية اذا علم أنه قد

---

[١] (البقرة: ٢٨٦).
[٢] درو تعارض العقل مع النقل ٢/ ١٠٠.
[٣] مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٦٦.
[٤] المصدر السابق ٣/ ٢٣٠.
[٥] المصدر السابق ٢٨ / ٥٠٠.

قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تأرة وفاسقا تارة أخرى وعاصيا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها. وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العلمية)[١].

- نتيجة لمنهجهم الإنفرادي النصي البعيد عن التوغل في أصول فهمه والبحث عن قواعده ومقاصده ومآلات تنفيذ أحكامه، لا يؤمنون بغير فهمهم وما يعارض فهمهم، ويردون أئمة العلم والمجتهدين جميعا في العالم الاسلامي كله، ويرمونهم بانهم أئمة الكفر أو علماء السلطة، بل إن تمكنوا منهم قتلوهم بل يفتون بقتل كل من يرفض مبايعة أميرهم.

ففي عام (٢٠٠٥) جاءني أحد مسؤولي الجيش الاسلامي الذي كان يقاوم المحتل، فقال : إن القاعدة في هذه الأيام قتلوا ستة من مجاهدينا، قلت له لماذا ؟ قال : يطلبون منا البيعة لأميرهم، ونحن لا نوافق منهجهم في العنف وسفك دماء الناس، فهل يجوز لنا شرعا أن نرد عليهم فنقتل العدد نفسه منهم فقلت لهم. يجوز شرعا ولكن سياسة لا تفعلوا، احتسبوا شهداءكم مقبولين عند الله تعالى، ولا تردوا عليهم، لأن هذا سيؤدي الى مقاتلة متبادلة بينكم، ولكن هددوهم، إن فعلوا ذلك في المستقبل رددتم عليهم، فلم يفعلوا على ماأتذكر وانتهى الأمر.

هذه الأمور وغيرها من الطامات التي نفذت في العالم الاسلامي وخارجه كانت نتيجة طبيعية لمنهجهم المغلق كما ذكرنا من قبل، البعيد عن الرسوخ في فهم شبكة الشريعة والبعيد ايضا عن ظواهر و اسرار حركة الدنيا المعقدة في زماننا.

ورحم الله تعالى الإمام ابن قيم الجوزية الذي أدرك هذه الثغرة الكبرى في تحريف الفتوى وقضاياها، تحت عنوان، علم الواجب وعلم الواقع استمع اليه وهو يقول :

---

[١] المصدر السابق ٤/٣٠٧.

(ولا يتمكن المفتى ولا الحاكم من الفتوى والحكم إلا بنوعين من الفهم، أحدهما : فهم الواقع والحكم فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علما، والنوع الثاني فهم الواجب في الواقع وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسول الله ﷺ في هذا الواقع ثم يطبق احدهما على الآخر) [١].

إن الخلل الذي شوه على كثير من الأفراد والجماعات في التاريخ الاسلامي فكرهم المتعصب لمذهب أو لطائفة أو لبدعة أو لغير ذلك الأمر الذي حجبهم عن الفهم الصحيح لمباديء الشريعة، لأنهم وقفوا على ظواهر الألفاظ في الكتاب والسنة، ولم يسمعوا لغير جهتهم حتى لو كان إماما جليلا أو فقيها قاضيا عالما بعلوم الشريعة ومناهج الاستنباط منها.

ومن هنا وقف الخوارج على ظاهر لفظ (إن الحكم إلا لله) ولم يسمعوا للامام الحق المنتخب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي أخذ علم الكتاب والسنة ومقاصدهما من فم رسول الله ﷺ منذ أن كان طفلا صغيرا الى يوم وضعه في قبره مع عمه العباس رضي الله عنه.

ولماذا عليّ وحده، فهذا رسول الله ﷺ يوزع غنائم حنين، فيتقدم منه أعرابي فظ فيقول له : إعدل يا رسول الله، ويجيبه رسول الله على ما ذكرنا من قبل ويحك إن لم أعدل، فمن يعدل.

هذا الأعرابي الفظ نظر الى ظاهر ما فعله الرسول ﷺ من تقسيم الغنائم ولم يسأله عن حقيقة ما فعل ومقصده فيها، حتى يوقن أنه الحق الذي لا ينطق عن الهوى ولا يفعل ذلك عن هوى.

---

[١] اعلام الموقعين ١/٨٧ – ٨٨.

وهكذا يستمر الحكم على الظواهر بجهالة تامة لما وراء هذه الظواهر من الحكم والمقاصد، فليجأ الخوارج الى تكفير عليّ والمسلمين، ويحللون فيه وفي المسلمين حكم السيف والقتل واباحة الدم، ويشغلون المجتمع الاسلامي ودولته العادلة بالصراع الدموى والاعتداء على الناس وخرق النظام العام.

ولا يسمعون قولا صادقا من عليّ رضي الله عنه، ولا فعلا راجحا يدخلهم في دائرة الأخوة الاسلامية مع وجود الخلاف.

يفعلون ذلك في زمن كانت الأمة الاسلامية بقيادة إمامها الحق المنتخب، يواجهون بغي الداخل وطواغيت الخارج من أجل التمكين للمستضعفين الموحدين في الأرض لاقامة دولة العدل الالهى. وتنفيذ شريعته السمحاء التي ارتضاها الله تعالى للبشرية، ولإخراجها من عبادة العباد الى عبادة ربّ العباد، ومن جور وظلمات الأديان المحرفة، الى نور الاسلام واستقامة الحياة، ومن ضيق هذه الدنيا الفانية الى سعة الجنات الدائمة التى أعدها الله لعباده الصالحين.

ولكن مع الأسف الشديد تمر الأزمان ولا تنطمس معالم المنهج الظاهري الأحادى، بل تنداح دائرته وتوسع، غير أن منهج دراسة شبكه الاسلام بعمق لدى الائمة الكبار ومدارسهم الفقهية يتغلب، فيخرج الفقهاء المجتهدين الذين يعلمون كيف ينزلون في صراعات الحياة المعاصرة علم الواجب على علم الواقع.

ولكن كيف كانوا يدرسون هذا المنهج الخصب الشامل من بدايته الى نهايته.

أولا : بدراسة اللغة العربية دراسة واسعة عميقة في مفرداتها وفقهها وفقه معانيها، في حقائقها ومجازاتها، وقطعيتها وظنيتها، وصرفها ونحوها ووجوه بلاغتها ثم في حقائقها اللغوية والشرعية والعرفية.

ثم دراسة الفقه واصول الفقه وقواعد الفقه ودراسة قواعد وضوابط مقاصد الشريعة، ولاشك أن مصادر هذه الدراسات بجانب اللغة، هي دراسة الكتاب والسنة، وبناء الاستنباطات علهيما بعد دراسة ما وراءهما من المقاصد إلحكم.

ومن خلال تلك الدراسات الاساسية، تأتي الدراسات المساعدة من المنطق وعلم الكلام والفلسفة والتاريخ وغير ذلك والعلوم الإنسانية المعاصرة.

وهكذا يحيط المجتهدون بتلك العلوم من اجل الانتقال الى الاستنباط منها، كل حسب المنهج الذي يتبعه من حيث الأصول والقواعد ليدرك به الكليات المقاصدية في ضوء الجزئيات الجامعة.

ولابد لفقيه العصر ألا يكتفي. يتبع استنباطات وآراء المدرسة الواحدة، وانما يدخل في مقارنة المذاهب الفقهية المتنوعة وأدلتها، حتى يطمئن الى الرأى الذي يختاره، وحينئذ سيكون راسخا في فهم واستيعاب شبكة الشريعة، فينتهى عنده التعصب الذميم لمذهب واحد، لأنه لم يعد يفكر في دائرة ضيقه.

علما أن هذا هو الجانب الأول من عملية قدرة إنزال النصوص الى وقائع الحياة.

وأما الجانب الآخر الذي به تكمل عنده أدوات الإفتاء أو الحكم فهو الإحاطة بحركة المجتمع الاسلامي والواقع الإنساني في اتجاهات الحياة جميعا حتى يستطيع أن ينزل الواجب على الواقع، من أجل تحقيق المصالح الأكيدة أو يبعد المجتمع عن المفاسد المحققة، ثم الحفاظ على الضرورات الخمس ومن ورائها الحاجيات والتحسينيات.

ومن الجدير هنا أن نؤكد على أنه لم يمر زمن على المسلمين واجهوا فيه حياة معقدة كزماننا الذي يمر بنا. فقد تنوعت الاختصاصات في المعارف المتنوعة التي تفرعت من الاختصاصات العامة، بحيث يستحيل على مجتهد واحد أن يحبط بها ويفتى بها كلها إفتاء كما كان يعمل السابقون.

ولأجله ظهرت ضرورة تأسيس مجامع فقهية لتناقش قضايا معاصرة بمعونة المختصين في كل علم، سواء كانت في علوم صرفة كالطب أم علوم انسانية كالاقتصاد.

ولاشك أن أئمة المذاهب الفقهية وما انتجوا، من المجتهدين الراسخين في الماضي والحاضر كانوا كذلك، ولذا انتجوا نظاما فقهيا شاملا راسخا تفتخر به الامة الاسلامية. وتشيد به المؤتمرات التشريعية في العالم المتمدن.[١]

ولقد استطاع فقهاونا في تاريخنا الفقهي الطويل أن يواجهوا أحداث الحياة المتغيرة، مستنبطين لها الأحكام الدقيقة المناسبة، وموجدين لها الحلول العملية المستندة الى تلك الأصول والقواعد.

ونستطيع أن نقول بكل علمية ووضوح : إن العالم الاسلامي بمجموعه لم يواجه مشكلة من مشاكل الحياة وقف الفقهاء أمامها حائرين، لم يجدوا لها في تلك الأصول والقواعد والمقاصد مخرجا، لأنها اصول عامة تسع الحياة الانسانية وتعبر عن حركتها الفطرية تعبيرا صادقا.

ولو راجعنا موسوعاتنا الفقهية في المذاهب المتنوعة، لحصلنا على كنوز من النظريات القانونية والآراء الفقهية والحلول الرائعة للمشاكل الحيوية.

ومن المفيد أن أقدم هنا نماذج من أقوالهم يفهم القارئ المتتبع كيف كانوا يفكرون ويجتهدون ويفهمون عصورهم، منطلقين من نصوص الكتاب والسنة، يوازنون بينها، ويفهمون منظوماتها ويتوغلون في معانيها ومقاصدها ومآلات تنفيذ الأحكام فيها.

يقول الفقيه الحنبلي ابن عقيل (رحمه الله تعالى) :

(السياسة ماكان فعلا يكون معه الناس أقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد. وان لم يضعه الرسول ولا نزل به الوحى :

---

[١] راجع كتابي (منهج التغيير الاجتماعي في الاسلام) ص ٦١ وما بعدها.

إن أردت بقولك لاسياسة إلا ما وافق الشرع، أى لم يخالف ما نطق به الشرع، أي لم يخالف مانطق به الشرع فصحيح. وان أردت إلا ما نطق به الشرع، فغلط وتغليط للصحابة فقد جرى من الخلفاء الراشدين كثير مما لم ينطق به الشرع) [١].

أقول : فعندما مانقول (الشريعة هي المصدر الرئيس) للدستور، فهذا صحيح، وأنما القول بأنه (المصدر الوحيد) للدستور، فغير صحيح، لانه سد لحركة العقل الاجتهادي المسلم في الاستفادة من تطور حركة المجتمعات وما يظهر فيها من حقائق، فنصوص الشريعة كتابا وسنة متناهية وحوادث الحياة المستجدة غير متناهية.

والدليل على ذلك : عندما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل قاضيا على اليمن قال له (إذا عرض عليك قضاء بم تعمل يا معاذ. قال : بكتاب الله قال : فان لم تجد في كتاب الله. قال : بسنة رسول الله، قال : فان لم تجد في سنة رسول الله، قال اجتهد ولا آلو، فربت الرسول عليه الصلاة والسلام على ظهره، فقال الحمدلله الذي وفق رسول رسول الله لما يحب ويرضى).

وليس شرطا أن يظهر العدل من خلال النصوص فحسب وانما قد يظهر من خلال مصادر أخرى تأتي بها تجارب الأمم والشعوب.

قال العلامة ابن القيم (فاذا ظهرت أمارات العدل واسفر عن وجهه بأي طريق، فثم شرع الله، فأى طريق استخرج به العدل والقسط فهي من الدين) [٢].

أقول : إن القرآن الكريم أصدر أمرا عاما بتحقيق العدل، فأى طريق آخر لم يرد في الكتاب والسنة يحقق العدل، فهو مقبول وضمن ما أمر به.

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١]

---

[١] ابن القيم / الطرق الحكمية ١٣-١٨.

[٢] الطرق الحكمية، ٤.

و قال تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٢].

ثم أقول :

وهذا حق قاله ابن القيم.

لان النصوص كما ذكرنا من قبل متناهية وحوادث الحياة غير متناهية. والصحابة الكرام ومن أتى بعدهم من المجتهدين استعملوا الاصول الشرعية العامة وقواعدها الكثيرة ومقاصدها المتنوعة المستنبطة من مئات النصوص، هي التي اعتمدوا عليها لإيجاد الحلول لمشكلات الحياة الجديدة.

يقول ابن القيم :

(إن السياسة العادلة لاتخالف مانطق به الشرع، بل هي موافقة لما جاء به، بل جزء من أجزائه)[٣].

ويعلل ابن القيم مسلك الشريعة فيقول.

(لأن الشريعة مبناها واساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة حرفت عن العدل الى الجور وعن الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث، ليست من الشريعة في شيء وأن أدخلت فيها بالتأويل).[٤]

وفي موضوع تطبيق نتائج النظر في المآلات التي هي مقصد من أهم مقاصد الشريعة يقول :

---

[١] (النحل: ٩٠).

[٢] (المائدة: ٨).

[٣] الطرق الحكمية ١٣.

[٤] إعلام الموقعين عن رب العالمين ٣/٣ دار الجبل – بيروت ١٩٧٣.

(لان العمل قد يكون مشروعا، لكن ينهى عنه لما تؤول اليه، أو ممنوعا لكن يترك النهى عنه لما في ذلك من المصلحة).

وشمولية الفهم عند ابن القيم ومقاصديته هي التي تدفعه أن يقول :

(فصل في تغيير الفتوى واختلافها بحسب تغيير الأزمنة والامكنة والاحوال والنيات والعوائد)

ثم يقول :

(وهذا فصل عظيم جدا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف مالا سبيل اليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أغلب المصالح لا تأتي به) [١].

واذا رجعنا الى شيخ ابن القيم الإمام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) لنرى ماذا يقول عن عدم التمكن والعمل في ظل دولة كافرة فيقول :

(فالعالم في البيان والبلاغ كذلك قد يؤخر البيان والبلاغ للأشياء الى وقت التمكن، كما أخر الله سبحانه انزال آيات واحكام الى وقت تمكن رسول الله ﷺ والحجة إنما يقوم بشيئن، بشرط التمكين من العلم بما انزل الله والقدرة على العمل به) [٢].

ثم تحدث عن عمل يوسف (عليه السلام) مع الكفار ومشروعية عمله فقال (ومعلوم أنه مع كفرهم لابد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها مع حاشية الملك وأهل بيته ورعيته، ولا تكون ذلك على سنة الأنبياء وعدلهم ولم يكن

---

[١] اعلام الموقعين ٣/٥.

[٢] مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٤ / ١٩٤ – ١٩٨.

يوسف يمكنه أن يفعل مايريد، وهو مايراه من دين الله. فان القوم لم يستجيبوا، ولكن فعل الممكن من العدل والإحسان ونال بالسلطان ذلك. [١]

ثم قال (وهذا كله داخل في قوله تعالى (فاتقوا الله مااستطعتم) فاذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما، لم يكن الآخر في هذه الحال واجبا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة، وكذلك اذا اجتمع محرمان لايمكن ترك اعظمها إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرما في الحقيقة، وان سمى ذلك ترك واجب وسمى هذا الفعل محرما باعتبار الأطلاق لم يضرك.

ويقال مثل هذا ترك الواجب لعذر، وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة لدفع ماهو محرم.

وقال : (وهذا باب التعارض باب واسع جدا، فان هذه المسائل تكثر فيها وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل).

ويقول : (والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة كما يعرف الخيرات الواقعة في الكتاب والسنة لصد ما هو أكثر خيرا وأقل شرا على ما هو دونه، ويدفع اعظم الشرين باحتمال أدناهما ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما. فان لم يعرف الواقع في الخلق والواجب في الدين لم يعرف أحكام الله في عباده. واذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل. ومن عبدالله بغير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح. [٢]

ويقول : (إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فانه يجب ترجيح الراجح منها، فيما اذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد، فان الامر والنهى، وان كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة،

---

[١] المصدر السابق ٢٠/ ٥٩-٦١.

[٢] جامع الرسائل ٢/٣٠٥.

فلينظر في المعارض له، فان كان يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد اكثر لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما اذا كانت مفسدته اكثر من مصلحته)[١].

أقول :

إن الإمام ابن تيمية بقدر ماكان صريحاً في الأصول كان سهلا في الفروع وبقدر ماكان يحتاط في الأول كان يرجح التيسير في الثاني، وله من المرونة في حل القضايا الدنيوية الصرفة، ما يجعل الانسان مقدرا اجتهاده المستقيم.

ومن اجتهاداته المشهورة، أنه لما ذهب هو وجمع من تلامذته الى (قازان) حفيد هؤلاكو الذي كان قد اسلم، وكان يحاصر دمشق، ليأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وجد في عسكره من كان يشرب الخمر، فلما أراد تلامذته أن ينهروهم عن شرب الخمر منعهم. وقال فليشربوا الخمر، أحسن من أن يكونوا صاحين فيقتلوا المسلمين.

وأما اذا ذهبنا الى الاندلس وجدنا الإمام الشاطبي يتكلم في مقاصد الشريعة فيقول : (مقاصد الشرع في بث المصالح في التشريع أن تكون مطلقة لا تختص بباب دون باب ولا بمحل دون محل ولا بمحل وفاق دون محل خلاف وبالجملة الأمر في المصالح مطرد مطلقا في كليات الشريعة وجزئياتها)[٢].

ويقول : (كل دليل شرعي ثبت في الكتاب مطلقا غير مقيد ولم يجعل له قانون ولا ضابط مخصوص فهو راجع الى معنى معقول، وكل الى نظر المكلف).

وكل دليل ثبت فيه مقيدا غير مطلق وجعل له قانون وضابط فهو راجع الى معنى تعبدي لا يهتدي اليه نظر المكلف ولو وكل الى نظره، إذ العبادات لا مجال للعقول في أصلها فضلا عن كيفياتها).[٣]

---

[١] الحسبه في الاسلام – دار الكتاب العربي، ص ٦٤ – ٦٥.

[٢] الموافقات ٢/ ٣٦٠.

[٣] الموافقات ٣ / ٢٥.

ويفصل القول في مآلات الأفعال فيقول :

(النظر في مآلات الأفعال معتبر شرعا، كانت الأفعال موافقة أم مخالفة. وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين للاقدام أو الاحجام إلا بعد نظره الى ما يؤول اليه ذلك من فعل، شروعا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ، ولكن له مآل على ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع له، ولكن له مآل على ذلك، فاذا أطلق في الأول بالمشروعية، فربما أدى الى استجلاب المصلحة فيه الى مفسدة تساوى المصلحة أو تزيدعليه، فيكون مانعا من اطلاق القول بالمشروعية، كذلك إذا القول الثاني بعدم المشروعية ربما أدى الى استدفاع المفسدة تساوى أو تزيد، فلا يصح القول بعدم المشروعية وهو مجال للمجتهد صعب، إلا اله عذب المذاق محمود الغب جار على مقاصد الشريعة)[1].

أقول :

لو ان الجماعات المتشددة، كان عندهم علم شامل باصول الشريعة وقواعدها ومقاصدها ومآلات الأفعال فيها، لما وقعوا فيما وقعوا فيه من سفك الدماء، وقتل الناس البريئين، وهدم المؤسسات واضاعة أموال الناس، والحاق اكبر القبائح الى دين الاسلام العظيم أمام مليارات من البشر في العالم، لينتهوا فيما بعد الى القول بان الاسلام دين الارهاب والعنف وسفك الدماء. بينما الاسلام دين الرحمة والعدل والاحسان والسلام.

واذا رجعنا الى الإمام المجاهد العز بن عبدالسلام، تراه يتحدث عن وضع المسلمين عندما استولى الكفار عليهم ولا يستطيعون دفعه ومقاومته فيقول :

---

[1] الموافقات ٤ / ١٩٤، ١٩٨.

(ولو استو لى الكفار على اقليم عظيم فولوا القضاء لمن يقدم مصالح المسلمين العامة، والذي يظهر انفاذ ذلك جلبا للمصالح العامة ودفعا للمفاسد الشاملة، إذ يبعد من رحمة ربي ورعايته لمصالح العباد تعطيل المصالح العامة وتحميل المفاسد الشاملة) [١].

وفي ضوء هذه المرونة المقاصدية يقول :

(التولى يوم الزحق مفسدة كبيرة، ولكنه واجب إذ علم انه يقتل من غير نكاية في الكفار، لان التعزير بالنفوس انما جاز لما فيه من مصلحة اعزاز الدين بالنكاية في المشركين، فاذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام لما في الثبوت من فوات النفوس مع شفاء صدور الكفار وارغام اهل الاسلام، فقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة)[٢].

أقول :

إن مثل هذه العقليات المؤمنة الجريئة هى التي يمكن ان تقود النهضته الاسلامية، لانها لعلمها الشامل وفهمها الدقيق تعرف كيف تحقق مصالح الأمة، وكيف تبعدها عن المآلات السيئة.

وقد سبق لنا أن نقلنا عن الإمام القرافي قوله :

(ومن خرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون الكلية إحتاج الى حفظ الجزئيات التي لا تتناهى وانقضى العمر ولم تنقض نفسه من طلب مناها، ومن ضبط بقواعد استغنى عن حفظ اكثر الجزئيات لا ندراجها في الكليات)[٣]

---

[١] قواعد الأحكام ١ / ٨٥ – دار القلم – دمشق.
[٢] المصدر السابق ١٥١/١.
[٣] الفروق ٣١٢/١.

وعندما نطلع على كتب هؤلاء الاساطين من الفقهاء المجتهدين ندرك، تماما أنهم توغلوا في اسرار شبكه الشريعة وحكمتها ومقاصدها في تحقيق مصالح الناس، دقها وجلها.

واذا رجعنا الى العصر الحديث رأينا أن الائمة المجتهدين فيه، تحدثوا كثيرا في مؤلفاتهم عما قاله السابقون، وانتقلوا بدورهم الى الحديث عن المشكلات العامة والخاصة التي تواجه المسلمين، ووضع الحلول الشرعية المناسبة لها من خلال اجتهاداتهم الجديدة المنضبطة، ويظهر ذلك على سبيل المثال في اجتهادات الأئمة محمد عبده ورشيد رضا وحسنين محمد مخلوف وعبدالمتعال الصعيدى ومحمود شلتوت وعلى الخفيف ومحمد أبى زهرة وعبدالوهاب خلاف ومصطفى الزرقا ومصطفى السباعي و عبدالكريم زيدان ويوسف القرضاوي وسعيد النورسي والطاهر بن عاشور وعبدالله بن زيد آل محمود. ومحمد عبدالله دراز و مصطفى الزلمي ونظام الدين عبدالحميد، و وهبة الزحيلى وفيصل مولوي وغيرهم من اقرانهم وتلامدتهم الذين ملأوا المكتبات بمؤلفاتهم وآثارهم.

أرجو الله تعالى أن يجزيهم عن دينهم وامتهم جزاء العاملين الصادقين

وآخر دعوانا ان الحمد لله ربّ العالمين.

النادي الشبابي

السيرة الذاتية والعلمية للمؤلف

- من مواليد ١٩٣٧ كركوك- العراق.
- أكمل دراسته الإبتدائية والمتوسطة في السليمانية، والإعدادية في كركوك.
- تخرج في كلية التربية- قسم اللغة العربية عام ١٩٥٩ بدرجة جيدجداً.
- حصل على الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من كلية الآداب- جامعة القاهرة عام ١٩٦٧م بدرجة جيدجداً، وكانت الرسالة بعنوان: (الآلوسي مفسراً). عين معيداً في كلية الشريعة- جامعة بغداد عام ١٩٦٧م.
- حصل على الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من جامعة القاهرة- كلية الآداب بمرتبة الشرف الأولى ودرجة الإمتياز عام ١٩٧٢م.
- رُقى الى مرتبة الأستاذية عام ١٩٨٣م.
- أوفد الى المغرب للتدريس في جامعاتها بين سنتي ١٩٨٢م- ١٩٨٥م.
- ألقى محاضرات علمية في المراكز الإسلامية في لندن وباريس واستنبول ومكة ومدن المغرب وغيرها، ومئات المحاضرات في العراق.
- أستاذ زائر في الجامعة الإسلامية بالرياض لربع سنوات متوالية (١٩٨١- ١٩٨٥م).
- حضر مؤتمرات عالمية في آسيا وأفريقيا وأوروبا وألقى محاضرات علمية فيها.

- ناقش أكثر من مائتي رسالة ماجستير ودكتوراه في العراق وخارجه.
- أشرف على أكثر من ستين رسالة ماجستير ودكتوراه في العراق وخارجه.
- ألف إلى الآن (٣٠) كتاباً في حقل اختصاصه ونشر عشرات الأبحاث والمقالات في المجالات العلمية في العراق وخارجه.
- أنتخب أستاذ أول في كلية التربية عام ١٩٩٦م.
- أشترك في تطوير مناهج وزارة التربية والتعليم العالي والأوقاف في العراق.
- أُلقي القبض عليه وأودع في سجن الأمن اعام في بغداد صيف عام ١٩٩٦م، وأتهم بالتآمر على نظام البعث، ولولا التدخل السريع لبعض رؤساء الدول الإسلامية وزعماء الحركات الإسلامية لحكم عليه بالإعدام.
- خبير علمي في عدة مجالات علمية في داخل العراق وخارجه.
- نال الإجازة العلمية في العلوم الإسلامية (نظام دراسة المساجد).
- انتخب أميناً عاماً للحزب الإسلامي العراقي عام ٢٠٠٣م.
- انتخب رئيسا للحزب الإسلامي أواسط عام ٢٠٠٤م.
- عضو في الهيئة الرئاسية لمجلس الحكم بين سنتي ٢٠٠٣م-٢٠٠٤م.
- تولى رئاسة مجلس الحكم في الشهر الثاني من عام ٢٠٠٤م.
- انتخب رئيساً لمجلس شورى الحزر الإسلامي العراقي الشهر السادس لعام ٢٠٠٥م-٢٠١١م.
- عضو الأمانة العامة للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين (٢٠٠٦-٢٠١٥م).
- عضو منتدى المفكرين في المغرب منذ عام ٢٠٠٣م.
- متزوج وله أربعة أولاد وبنت واحدة.

آثار المؤلف

- الكتب:

١. حقيقة البابية والبهائية، ط٥، القاهرة ١٩٨٥م.

٢. الآلوسي مفسرا (رسالة ماجستير) المعرف، بغداد، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٣. الرازي مفسرا (رسالة دكتوراه) الحكومة، بغداد، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٤. دراسات في أصول التفسير، ط١، مطبعة الوطن العربي، بغداد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٥. جمال الدين الأفغاني (المصلح المفترى عليه)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٤م.

٦. منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م.

٧. المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارية، من منشورات مجلة الأمة القطرية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٨. أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث، الدار البيضاء، المغرب، ودار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٩. تجديد الفكر الإسلامي، طبعة منقحة مزيدة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٤١٦هـ/١٩٨٥م.

١٠. تطور تفسير القرآن، قراءة جديدة، دار الحكمة، بغداد، ١٩٧٩م.

١١. نظرات في الاقتصاد افسلامي، الحوادث، بغداد، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٢. من أئمة التجديد، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦م.

١٣. النورسي الرائد الإسلامي الكبير، بغداد، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

١٤. علوم القرآن والتفسير، دار الحكمة، بغداد، ١٩٨٩م.

١٥. صراع الأفكار في المجتمع الإسلامي، ط. وزارة التربية، أربيل، ١٩٩٨م.

١٦. النورسي متكلم العصر الحديث، ط١، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٧. تفسير آيات الصفات بين المثبتة والمؤولة، دار إحسان، طهران.

١٨. الإسلام والتنمية الاجتماعية، بغداد، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

١٩. حق المعارضة السياسية في المجتمع الإسلامي، دار الإحسان، ١٩٩٣م.

٢٠. المنهج الشمولي في فهم الإسلام، دار الإحسان، ١٩٩٣م.

٢١. نظرات في تفسير آيات من القرآن الكريم، دار الأنبار، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. وطبعة القاهرة- دار التوزيع والنشر، ٢٠١٣.

٢٢. مذهبية الحضارة الإسلامية وخصائصها، دار عمان، عمان.

٢٣. قضايافي الفكر الإسلامي المعاصر، أربيل، العراق.

٢٤. العقائد الإسلامية، أربيل، العراق، ٢٠٠٢م.

٢٥. العولمة من المنظور الإسلامي، أربيل، العراق، ٢٠٠٢م.

٢٦. قضايا مثارة حول المرأة المسلمة، شركة الراشد، بغداد، ١٤٢٣م.

٢٧. الفنون الجميلة من المنظور الإسلامي، دار ثرين، أربيل، العراق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢٨. الجهاد الشامل وموقف الحزب الإسلامي العراقي من العملية السياسية، أربيل، العراق، ٢٠٠٥م.

٢٩. عقيدة التكفير عند أهل السلنة والجماعة، الأردن، ٢٠١٠م، مكتبة الفرقان، ط١.

٣٠. الإخوان المسلمون في العراق، دار المأمون- عمان، ٢٠١١م، وبغداد، ٢٠١٢م.

٣١. أوضح المعاني في تهذيب روح المعاني- لأبي الثناء الآلوسي، مكتب التفسير، أربيل، دار الفتح، الأردن.

٣٢. مع الرسول وصحبه، مكتب التفسير، ٢٠١٧، أربيل.

٣٣. المشروع الإسلامي المعاصر أمام التحديات، نشر مكتب التفسير- أربيل ودار الفتح- عمان، ٢٠١٥م.

- **الأبحاث:**

١. تفسير القرآن بالمصطلحات، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد، عدد٣، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٢. الإتجاه الباطني في التفسير، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد، عدد٤، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٤م.

٣. موقف صاحب المنار من النفسرين، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد، عدد١٣، ١٣٩٠هـ/١٩٧٤م.

٤. الواحدي ومنهجه من المفسرين، بحث منشور في مجلة كلية الرسالة الإسلامية، بغداد، عدد٢٦، ١٩٧١م.

٥. أين نجد الفلسفة الإسلامية، بحث منشور في مجلة الرسالة الإسلامية، بغداد، العددين ٦٥-٦٦.

٦. أثر القرآن في اللغة العربية وعلومها، بحث منشور في مجلة الرسالة الإسلامية، ضمن أعداد سنة ١٣٩٨م.

٧. تحقيق قصة بحيرا، بحث منشور في مجلة (الجامعة).

٨. النورسي رائد الفكر الإسلامي الحديث، بحث منشور في مجلة الأمة القطرية.

٩. الإسلام والتنمية الاجتماعية، بحث قدم الى مؤتمر علماء الاجتماع الذي عقد في بغداد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

١٠. أبحاث ومقالات فكرية متنوعة في الثقافة الإسلامية المعاصرة وصراعاتها مع أعدائها، منشورة في مجلة التربية الإسلامية ببغداد بين سنة ١٣٩٣-١٤٠٢هـ.

- **الرسائل:**

من سلسلة (الرسائل البيضاء) صدرت للمؤلف الرسائل التالية في بيروت:

١. العلم ليس كافراً.
٢. أسرتك أيها المسلم.
٣. حركة الإسلام ومفكروا الغرب.
٤. الوجودية وواجهات الصهيونية العالمية.
٥. مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
٦. النظام الروحي في الإسلام ومقدمات شريعته.
٧. حول قضية لا تراث.
٨. زي المرأة وأثره في المجتمع.
٩. اللغة العربية بين شعوبيتين.
١٠. من المنظومة الغربية الى المنظومة الإسلامية، شركة الرشد، بغداد.
١١. اليهود وتفجير الجنس، شركة الرشد، بغداد.
١٢. موقف اليهود من الإسلام والمسلمين، شركة الرشد، بغداد.
١٣. صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن، شركة الرشد، بغداد.

- **الكتب المنهجية:**

١. أصول تدريس الدين لمعهد المعلمين في بغداد (بالإشتراك).
٢. التربية الدينية لمعهد المعلمين في بغداد (بالإشتراك).
٣. علوم القرآن للمعهد الإسلامي في بغداد (بالإشتراك).
٤. مذاهب المفسرين للمعهد الإسلامي في بغداد (بالإشتراك).
٥. التفسير كلية التربية في بغداد (بالإشتراك).

٦. الإسلام نظام الحياة لمكتبة الراشدين في الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار في الجامعات العربية.

٧. الهجرة التبوية الشريفة لمكتبة الراشدين في الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار في الجامعة العربية.

٨. تفسير القرآن الكريم في مدارس وزارة التربية بالجمهورية العراقية (بالإشتراك).

- تحت الطبع:

١. تهذيب منهاج السنة النبوية.

٢. العراق المعاصر- سيرة وشهادة.

٣. شخصانية المراءة

٤. منظومة آيات القتال- وتطبيقاتها المعاصرة.

النادي الشبابي

الفهرس

الفصل الأول الآيات الحاكمة على منظومة القتال ١٥

الفصل الثاني تفسير آيات المنظومة القتالية ٣٧

الفصل الثالث أخلاقيات الحرب الاسلامية ٦٥

الفصل الرابع إدارة التوحيش في ضوء منظومة آيات القتال في القرآن الكريم ٧٥

الفصل الخامس بين مهجين ١٠٣

الفصل السادس التكفيريون والقواعد الشرعية ١١٩

الفهرس ١٤٥

هذا الكتاب

منهجي في هذه الدراسة المتواضعة، الاعتماد المباشر على آيات القرآن المجيد، سواء تلك المجموعة التي تحدد حاكمية جمع من الآيات المهيمنة، أم التي تتحدث عن تفاصيل المنظومة آية آية، المحكومة في مساراتها بالآيات السابقة.

وظني أن هذه الدراسة فيها شيء من الجدة، اذ لم أجد أحدا لا سيما من المفسرين قد تحدث فعن حاكمية آيات على آيات في المنظومة المعرفية القرآنية الواحدة.

ودعواتي من الباري سبحانه أن يوفقني الى اصابة الهدف وتوجيه جيل الشباب الى معرفة حقائق القرآن الكريم، ومقاصده الصريحة أو المستنبطة : حتى لا يقعوا في متاهات التأويلات المنحرفة غير المنضبطة، التي وقع فيها الخوارج قديما وحديثا وولغوا تحت ضغطها في دماء المسلمين جهلا وظلما وعدوانا، والحقوا بدينهم الحق جرائم ارتكبوها هنا وهناك، هو عنها بريء.

9 789933 593407

شباب
الناري الشباي